

الذاتية

«فألهمها فجورها وتقواها»

الناشر



رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الذاتية

«فألهمها فجورها وتقواها»

تأليف: الأستاذ الدكتور محمد أبو زيد الفقى

عدد الصفحات: 208

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2017/14839

ISBN: 978-977-6580-96-1

الذاتية

«فألهمها فجورها وتقواها»

تأليف

الأستاذ الدكتور / محمد أبو زيد الفقي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين شرفوا الحياة بسلوكهم فيها. وعمروها بسعيهم فيها وضربوا لنا المثل الأعلى فيما ينبغي على المسلم أن يصل إليه في طاعة الله تعالى عبادة وخلافة.

وبعد...

فالإنسان بحكم خلافته لله تعالى في الأرض يقضى عمره بحثا عن أسرار الحياة في الأرض والفضاء، ثم أحيانا يتفلسف فيبحث في عالم الغيب، وأحيانا يستبد به الغرور والشطط فيبحث في ذات الله تعالى، ويتصور أنه قادر على رؤية الله تعالى في الدنيا، ويسمى هذا التصور مكاشفة وقربا.

ومع ذلك كله، فالإنسان ينسى أن يبحث في نفسه، ويسبر غورها، ويقف على أسس مكرها وخداعها، ودراسة النفس هي البداية الصحيحة لحياة سوية هادفة.

ولقد عهد الله تعالى إلى آدم، وحذره من نفسه ومن الشيطان. ولكن آدم عليه السلام انشغل بزخارف الجنة ونعيمها، ونسى غرور النفس وشططها، فجاء الشيطان وزين الخلود لآدم إذا عصى ربه وأكل من الشجرة.

وسقط آدم في هذا الاختيار، وعلّة سقوطه أنه نظر إلى الأشياء وانفعل بها، ولم ينظر إلى ذاته، مع أنها كانت قريبة العهد بالخلق، ولم تحمل معها أدران القرون كما تحمل ذواتنا الآن وحينما نظر آدم إلى ذاته أدرك ما وقع فيه من خطأ، لجأ إلى ربه مرة أخرى بنفس

صافية وذات طاهرة مدركة لمهمتها في الحياة إدراكا دقيقا، فتاب الله تعالى عليه وهداه إلى الصراط المستقيم.

والقرآن الكريم هو كتاب النفس الأول، لأنه كلام الله تعالى، وهو الذى خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو يرشدنا دائما إلى أسرار الذات البشرية، إلا أن البعض منا يركزون على ما فى القرآن الكريم من علوم أخرى، ويُعرضون عن علم النفس فى القرآن الكريم، مع أن هذا الكتاب قد نزل أساسا لهداية النفس البشرية وإعادتها لإلى فطرتها الصادقة.

وعلى الصفحات التالية محاولة لدراسة الذات الإنسانية من جوانبها العملية، وهى دراسة لمجموعة من الذوات مثل الذاتية الفاعلة، والذاتية المنفعلة، والذاتية الغافلة، والذاتية المتضخمة. وهى محاولة لتفسير سلوك الإنسان، ولمعرفة اسراره وأغواره، وهى دراسة هامة لكل من يتصدى للدعوة إلى الله تعالى، حتى تكون دعوته على بصيرة، وعلم بذوات المدعويين، ولكنها تبقى محاولة وإن كنت لم أصل إلى نهاية الطريق فحسبى انى مضيت فيه...

أ.د / محمد أبو زيد الفقي

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

بكفر الشيخ (سابقا).

عضوالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

رئيس مجلس إدارة جمعية الإعلاميين المصرية.

الباب الأول

الذاتية الفاعلة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وآله الكرام الطيبين الطاهرين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم البعث العظيم.

وبعد:

فقد كثرت مشكلات الدعوة الإسلامية والعقبات التي تشهدها في العصر الحديث، وقد حاول الكثير من المفكرين الإسلاميين، والباحثين المخلصين أن يعثروا على حل لهذه المعضلة، فصلاحية الدعوة الإسلامية للانتشار لا ريب فيها، وصلاحيتها للقيادة الفكرية والسياسية في سيرها، أو تنحرف في مسارها في وقتنا الحاضر؟!

والاجابة على هذا السؤال الكبير هي المعالجة العلمية لقضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، ولأنها قضايا، لا قضية واحدة، فإن المعالجة الرأسية لكل قضية على حدة، أكثر فائدة من المعالجة الأفقية لكل القضايا دفعة واحدة، لأن هذه المعالجة الأفقية وإن كانت تجمع القضايا، إلا انها تفتت الحلول، وتعمم المدلول، وتجعل النتيجة يائسة مع وجود الأمل، أو متفائلة مع تراكم العقبات.

وفي هذه المحاولة السريعة لدراسة قضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، أبدأ بقضية واحدة هي أولى القضايا ويتأسس عليها ما بعدها، وهي قضية ذاتية الداعية، وأثرها على دعوته. إن كثيراً من الدعاة الآن يعتبرون أنفسهم مبلغين فقط، بمعنى أنهم يبلغون دعوة الإسلام إلى الناس، ويقيسون دورهم بالكم الذي بلغوه من المعلومات، ولا يلتفتون إلى

الكيف الذى أصلحه هذا البلاغ فى مشاعرهم الخفية، وفى ذواتهم الظاهرة للناس، لأن الداعية الحقيقى يجب أن يكون وعاء لدعوته.

ولذلك لما سئلت السيدة عائشة عن أخلاق النبى ﷺ قالت «كان خلقه القرآن»، معنى هذا أنه كان وعاء للقرآن الذى هو وعاء الدعوة وسياجها، وهذا يقودنا إلى نتيجة مؤداها أن الذاتية الطاهرة للداعية أساس فى دعوته، وعليها يتوقف نجاحه فى هذه الدعوى.

ولكى يتم بحث هذا الموضوع بحثا علميا. لابد من التركيز على ذاتية الداعية وأثرها فى إيمان المدعويين، بمعزل عن العوامل الأخرى التى تساعد على الإيمان مثل العبادات والأخلاق والمعاملات فى الإسلام، وأفضل النماذج للدراسة هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ص، وأفضل الشخصيات التى تحقق لها الإيمان القوى قبل أن تفرض العبادات هم أصحابه الذى آمنوا فى فجر الدعوة الإسلامية.

وعلى هذا فالدراسة فى هذا الموضوع تنقسم إلى فصلين:

الفصل الأول

الذاتية الطاهرة وتأثيرها

القسم الأول: ذاتية الداعية وشمائله

الداعية المقصود بالدراسة هو النبي ﷺ .

لقد أخبر أناس من مكة - سرا - أنه رسول الله تعالى، وأنه مكلف برسالة يبلغها للناس كافة، ولم يكن القرآن الكريم قد نزل منه ساعتها إلا آيات قليلة معظمها خطاب من الله تعالى للنبي ص، ولكنهم مع قلة الآيات وعدم فرض العبادات، آمنوا به إيمانا جعلهم يضحون بأرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونصرة دينه الذى لم يكتمل بعد.

فما الذى دفعهم لهذا الإيمان القوى الذى يفتت الجبال بقوته، ويقهر الطغاة بعزته؟ وعزته ليست في قوة أصحابه المادية، فقد كانت معدومة، ولكنها كانت في وضعهم وشدة تمسكهم به.

وذاتية النبي ﷺ الظاهرة في كثير من آى الذكر الحكيم نختار منها ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿بَاقِلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ

مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (١) ورة القلم من ٤: ١

٢ - قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ (٢) .

(١) سورة القلم ٤: ١ .

(٢) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ - قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِيَنصُرَنَّ لَهُمْ فَمَا عَصَانُوا لِيُؤْتِيَنَّهُم مِّنَ الْغَنَاءِ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١٥٩﴾ (١)

في الآيات السابقة ملامح للشخصية الكبيرة، والذاتية الطاهرة للمصطفى ص، فالآيات الأولى تنفي عنه الجنون، وتثبت أن له أجرا كريما غير ممنون - أى عن اتحقاق، ثم تأتي شهادة الحق سبحانه وتعالى في الآية الثالثة بأن رسول الله ﷺ على خلق عظيم، وهذه الشهادة هي أعظم وأشرف دليل على طهارة ذاتية ﷺ .

والآيات الثانية تبين الجانب العملي لهذه الذات الطاهرة، فهي شخصية فاعلة في إبلاغ الخير للناس، منفعة بإعراضهم عن الخير، أى أنها شخصية تفرح لهداية الناس، وتحزن على ضلالهم، وهي بالنسبة للطائفة التي سلكت طريق الهداية تظلمها بالرفقة والرحمة، وهي ملامح عظيمة لهذه الذاتية الطاهرة.

ولو اقتدى الدعاة الآن بالنبي ﷺ في هذه الجوانب النفسية لوضعوا الأساس المتين لنجاح دعوتهم، وإن كانت ذاتية النبي ﷺ ستظل سامقة لا يصل إلى منزلتها أحد.

وفي الآية الأخيرة إيضاح لمعنى الرأفة والرحمة، فالله سبحانه وتعالى يطلب منه في هذه الآية أن يعفو عن المؤمنين وأن يستغفر لهم في ذات الوقت، وهذه مقابلة نفسية في غاية الغرابة، ولكنها ليست بعيدة على الشخصية السوية الكاملة - شخصية المصطفى ﷺ .

فالإنسان يغفر لأخيه الإنسان خطأه وهذا ممكن من وجوه، أما أن يغفر له ويستغفر له فذلك هو الذى يكشف للباحث عن سر من اسرار ذات النبي ﷺ الطاهرة. وهو قياس ثابت للبعد، أو القرب من التأسي بالمصطفى ص، ويمكن لكل داعية أن يجربه داخل نفسه تجاه إنسان أخطأ في حقه، هل يغفر له؟ وهل يستغفر له؟. الإجابة الصادقة هي التي تحدد ذاتية الداعية، ومدى نجاحه في دعوته.

(١) سورة آل عمران ١٥٩

شمائل أخرى للذاتية الطاهرة

انفرد النبي ﷺ من بين سكان مكة بأن له شمائل ثابتة، قبل البعثة وبعدها. وقد عد القضاء من خصائصه ﷺ أنه لا يشهد على جور^(١).

ويقول الاستاذ/ محمد أحمد جاد المولى: عن النبي ﷺ . أنه كان (ذا شجاعة ونجده وبسالة وشدة، وبأس وشهامة، وحماسة وصرامة، وصوله وإقدام، يشئت شمل الكمأة ويبطل خيل الأبطال، أذهب الشك بحق اليقين، وأرهب العذاب سيفه أحلامهم ونكت أعلامهم، وزيف أقوالهم وأفعالهم، حضر الوقائع وشهد الملامح. وتولى الكمأة عنه وهو مستقر، وفر المسلمون يوم حنين من حوله وهو ثابت لا يبرح، يقبل لا يدبر ولا يتزحج، ما لقي كتيبة إلا كان أول ضارب، ولا ثوانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع واثب، لم ير أثبت منه جأشا في الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلال، طالما، ثبت في الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأس، والضراء وهو مكروب، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنه، لا يتحير في شدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقي ﷺ بمكة من قريش ما تشيب له النواصي، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى، تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وهو في قطر مهجور، وعدد محقور، وبذلك جمع بين التصدى لشرع الدين حتى أظهره ومكافحة العدو حتى قهره^(٢).

هذه الشمائل التي سجلها الكاتب منتزعة من السيرة النبوية الطاهرة. وليست نشيدا منسقا من تابع لمتبوعه كما يتوهم القارئ لأول مرة ينظر فيها إلى الكلمات، وهذه المشاكل التي تدل على الذاتية القوية للداعية الأولى، هي نفسها التي جعلت الرواد الأوائل أمثال ياسر بن عامر وزوجته سمية وبلال بن رباح وغيرهم يعذبون العدو وهم يعذبون، وكانوا مع الضعف يصابرون صبر المستعلى، ويثبتون ثبات المستولى، وهذا هو السر في بسالتهم

(١) الإمام جلال الدين السيوطى الخصائص الكبرى ﷺ ٤١٦ ط دار الكتب.

(٢) الأستاذ/ محمد أحمد جاد المولى محمد ﷺ المثل الكامل ﷺ ١٨٠، ١٩ ط المكتبة التارية سنة ١٩٣٧

الشديدة في مواجهة الباطل، ولم ينزل قرآن يأمرهم بهذا الفدا وقتها، غير أن اهتمام القرآن الكريم كان وقتها ينصب على التوحيد ونبذ عقيدة الشرك. ولكن الذي حدث هو أنفعال ذاتية المدعويين بذاتية الداعية.

وليس من أمل لأمة الإسلام في يومها المخبول، وغدها المجهول، إلا أن تترك كل المثل العليا الزائفة وتعود لمثلها الأعلى الكامل الشامل صاحب الذاتية الطاهرة المصطفى ص، (إنه الهدف السامى الذى ولينا وجوهنا شطره، بدل الضعف قوة، والذل عزة، والفرغنى، والتفرق وحدة وألفة، والجبن شجاعة، والخمول ذكاء ونباهة، والكذب صدقا والاستكانة إباءً، والانحطاط رفعة، والبغض محبة، ونكث العهد وفاء والأثرة تضحية لصالح المجموع. هذا هو المثل الأعلى الذى يجب أن نوغل في الإسراع إليه سيرا على تلك السنة، وتخلقا بأخلاق تلك الشخصية الكاملة، المملوءة حياتها بمكارم الفعال، وجلائل الأعمال، والمترعة بالمثل العملية العليا)^(١). وكما أن النبي ﷺ مثل أعلى لكل الأمة، فإنه مثل للدعاة، إن تطهير ذاتية الدعاة في العصر الحديث غدا مطلباً مهماً لنجاح الدعوة الإسلامية.

وفي كتابه (رجال حول الرسول)، ربط الأستاذ خالد محمد خالد، بين ذاتية النبي ﷺ الطاهرة القوية، وبين تلك التضحيات الهائلة التي قام بها أصحابه رضوان الله عليهم فقال تحت عنوان (النور الذى اتبعوه): (أى معلم كان وأى إنسان هذا المترع عظمة وأمانة وسموا؟: ألا إن الذين بهرتهم عظمتهم لمعدورون، وإن الذين اقتدوه بأرواحهم لهم الراحون... رسول الله إلى الناس فبقية الحياة، أى سرتوفرله فجعل منه إنسانا يشرف بنى الإنسان؟.. أى إيمان وأى مضاء؟! أى تقديس للحق؟! أى احترام للحياة والأحياء؟!) ثم يقول عن كلماته هذه (إنها تومئ على استحياء إلى بعض سمات تفوقه وعظمته، التي جعلت أفئدة الناس إليه، والتي جذبت نحوه في ولاء لا نظير له هؤلاء الذين)..

(١) المرجع السابق المقدمة للأستاذ عرفات الدويك.

لم تكد الحياة تنشق عبيرها، حتى جعلت من كل رياحها وأنسامها بشرا بين يديه، ورسلا إلى كل بقاع الإنسان ومواطنه حاملة مبادئ الدعوة وعبير الرعاية، وأجل تلك هي الغاية لا أكثر... أن نبصر في ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التي نادى إليه ولأء المؤمنين، وجعلتهم يرون فيه الهدف والطريق. والمعلم.. والصيديق..^(١).

لقد وصل الأستاذ خالد محمد خالد - موقفا - إلى الربط بين الذاتية الطاهرة للنبي ﷺ والذاتية المنفعلة الطاهرة عند أصحابه، وأعطى بذلك أساسا متينا لدراسة سلوكهم المعجز المحير لكل باحث، اسمع إلى قوله: (لكى تبصر في ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التي نادى إليه ولأء المؤمنين).

وفي القسم الثانى من هذا المبحث سأقدم - بإذن الله تعالى - تصويرا لصدى سمات عظمة النبى ص، عند الذين اتبعوه قبل أن تفرض الفروض. وقبل أن يكتمل الوحى النازل من الله تعالى.

القسم الثانى: أثر الذاتية الفاعلة على المنفعلة

الذاتية الفاعلة هي ذاتية المصطفى ص، والذاتية المنفعلة هي ذاتية الأوائل من المؤمنين، الذين آمنوا في فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء^(٢) الإسلام، ومع ذلك فالدراسة النفسية لا تتجه إلى إثبات هذا الإيمان المبكر، واعتناق دين لم تكتمل أركانه بعد، بل تتجه الدراسة النفسية، إلى قوة التمسك بهذا الدين مع ما تعرض له المعتنقون من تعذيبند هس لقسوتها الآن، - رغم اتساع المساحة الزمنية بيننا وبينهم بما يزيد على ألف وأربعمائة عام، وقوة التمسك بهذا الدين، مع قسوة التعذيب من قبل الخصوم، تأثير في النفس أكثر من سؤال: لماذا تمسك هؤلاء بدين لم تكتمل رسالته بعد، وبإسلام

(١) الأستاذ/ خالد محمد خالد رجال حول الرسول ﷺ ١٤، ١٥ ط دار ثابث القاهرة سنة ١٩٨٤.

(٢) راجع حديث بنى الإسلام على خمس لتدرك صدق هذه المقولة.

لم تقدم كل أركانها؟ وكيف ضحوا بأرواحهم وهم ما يزالون في بداية الطريق ولما يتبينوا معالمه ومحدداته؟! والإجابة على كل هذه الأسئلة ستأتى بعد أن أقدم للقارئ صورة عن ذاتية هؤلاء الأوائل.

إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون، وهم علي طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضيء دروب الدعوة وتلهم الرشد للدعاة، وهم عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان.

ومع كثرة هؤلاء الذين ضحوا من أجل الإسلام ومع علو قدرهم سأقتصر في هذا البحث بالحديث عن أولئك الذين اسلموا وماتوا في سبيل الإسلام، وهم بمعزل عن مهدافات التضحية ومحفزات الإيمان، فقد آمنوا بالإسلام وواقعه لا يبرهن على قيام دولة يضحى من أجلها ولا يقابل الإيمان بالله الواحد إلا التعذيب والهوان

وعند بداية البدايه، وقبل أن تشرق شمس الاسلام وقف نفر من الضعفاء الذين ليست لهم منعة من آمال ومال، وقفوا في السحر ينتظرون اليوم الجديد، ومازال التاريخ يؤكد ويعضده في ذلك على النفس الحديث أن إيمان هؤلاء المتسحرين ظل أقوى من إيمان كثير من الذين ساروا في ضوء شمس الإسلام الساطعة استضاءوا بنورها، وانتفعوا بنارها، وعن هؤلاء يقول ابن الاثير: (وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يُمنعون بها، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار، ليفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب في دينه ويعصمه الله تعالى منهم).

مثل عليا يجب التمثل بها

ومنهم عمار بن ياسر أسلم هو وأبوه وأمه أسلم قديما ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، بعد بضعة وثلاثين رجلا، أسلم هو وصهيب في يوم واحد، فكانوا يخرجون عمارا وأباه

وأمه إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء يعذبون بحر الرمضاء، فمر بهم النبي ﷺ فقال: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر من العذاب. وأغلظت سمية القول لأبى جهال فطعنها في قلبها بحربة في يده فماتت وهي أول شهيد في الإسلام. ومنهم خباب بن الأرت، وكان إسلامه قديماً، قبل سادس ستة. قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يعرونه ويصلقون ظهره بالرمضاء، ثم بالرضف، وهي الحجارة المحمأة بالنار، ولووا رأسه، فلم يجهم إلى شئ مما أرادوا منه، هاجر وشهد المشاهد كلها، مع رسول الله ص، ونزلاً لكوفه ومات سنة ست وثلاثين. ومنهم صهيب بن سنان الرومى ومنهم أبو فكيهه ومنهم لبيبة جارية بنى مزمل، ومنهم زبيرة وكانت لبني عدى، ومنهم النهديه مولاة لبني نهد، ومنهم أم عبيس وقيل: عبيس وهي أمة لبني زهرة^(١).

الكلمات السابقة للعلامة ابن الأثير توضح بعض الجوانب الباهرة في سيرة الأوائل الطاهرة، مع ذلك تحتاج إلى التأمل الدقيق

نظرة فاحصة

جاء في الفقرات السابقة بعض العبارات التي يحسن بنا الوقوف عندها وهي تتلخص فيما يلي:

أ - إشاعة العذاب ضد المسنين من كبار الكفار، رأينا أبا جهل مثلاً يشترك في تعذيب سمية زوجة ياسر بن عمار، يعذب أيضاً بلال بن رباح، ويتدخل في تعذيب المسلمين. معنى هذا أنهم كانوا يعتبرون الإسلام جريمة اجتماعية وليس عملاً فردياً يستوجب العقاب من ولى الأمر. وهي قضية خطيرة حربية بالتأمل لأنها تظهر مدى المعاناة التي يكابدها كل قادم جديد إلى ساحة الإسلام.

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٦٦: ٧٠ ط دار صادر بيروت ١٩٧٩ وانظر في ذلك تاريخ الطبرى ج ص ٣٢٥ وما بعدها ط دار المعارف

ب - إن عبارة ابن الأثير عن تاريخ إسلام عمارين ياسر [بعد بضعة وثلاثين رجلاً] توهم أن عماراً أسلم في وقت واحد مع أبيه وأمه، والحقيقة في الدخول إلى الإسلام، وترتيب إسلامهم هكذا: [أسلم ياسر وسمية وعمار وأخوه عبدالله بن ياسر]^(١).

وهذا الفصل في تاريخ الإسلام لياسر بن عمار وزوجته، وابنة عمار، أمر ضروري عند التعرض لبحث حالة كل منهم، لأن ما أظهره - ياسر وسمية - من جلد و صبر يجعلهما في مرتبة إبتها عمار، ويضعهما في درجة، هيات أن يصل إليها عمار أو غيره من المسلمين.

وإذا كان التاريخ قد أشاد بعمار لأنه عاش بعد إنتصار الإسلام، وأهمل أبويه فتلك محنة التاريخ التي سأعرض لها في نهاية البحث، ولكن يظل مكان ياسر وسمية سامقا وشامخا لأنهما من أوائل الأوائل في الإسلام، وإنهما لو فرطاً لأثر ذلك تأثيراً خطيراً في مستقبل الإسلام بعد ذلك، إنهما جادا بنفسيهما من أجل أن ينعم الآخرون بصحيح العقيدة والعزة في الحياة: لقد عذبت سمية بنت خياط [من قبل المشركين عذاباً أليماً وهي عجوز كبيرة، فصبرت ولم تصبأ عن الإسلام]^(٢)، هذه السيدة العجوز كيف تحملت العذاب وكيف تقاس بالذي أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان، أو بالذي لم يكرهه على الكفر أصلاً؟!

إن بعض المعدبين الأوائل لم يكونوا يتحملون العذاب كموقف سلبي لا يقدر على غيره، بل كانوا يمارسون الدعوة إلى الله تعالى بالقول والفعل، ويبرهنون على صدق دعوتهم بما يلاقون من عذاب وهوان، ولولا هذه البطولة والبسالة من قبل هؤلاء لظل الدين في بدايته فرضاً نظرياً يسهل الالتفاف حوله بفصيح الشعر وبلغ النثر، وكان الأوائل المعذبون يدعون لدينهم بطرقهم الخاصة.

(١) عز الدين بن الأثير. اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٥ ص ٢٤٣ ط دار الشعب سنة ١٩٧٠.

(٢) عمر رضا كحالة. أعلام النساء ج ٢ ص ٢٦١ ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٤ م.

فها هى سمية بنت خياط زوجة ياسر بن عمار، وهى أمة عجوز، لاحول لها ولا قوة، وتقف بعد موت زوجها ياسر، تقف - وهى تعلم نهايتها - فى مواجهة رأس الكفر أبى جهل، ولا تكتفى برفض ما يعرضه عليها من شرك، أو من ترك للإيمان، بل تغلظ له القول، وتضعه فى منزلته الطبيعية كسائمة من بهائم الأنعام، وتبين له أن لا عثر من الشرك، وأن الشرك دنس وذلة، ويزورها بأنه سيضعها بين بعيرين يربطها بهما، فى كل بعير يد ورجل، ثم يفصل جسمها عن بعضه، بعد أن يضع حرته فى قلبها، ويخرجها من فمها، استمعت سمية إلى هذا الحكم الذى تعلم أنه سينفذ حتما، استمعت إليه بلا إكتراث، بل علت على المشركين من سادتها، ومتهم بالذلة والصغار. [إن سمية "الشهيد" وقفت يوم ذاك موقفا يمنح البشرية كلها من أولها وآخرها رفا لا ينفذ، وكرامة لا ينصل بهاؤها..! موقفا جعل منها "أما" عظيمة للمؤمنين فى كل العصور، وللشرفاء فى كل الأزمان..!!]^(١) لقد تفنن المشركون فى العذاب، ولكن ذلك لم يمنع هؤلاء الأوائل من التمسك بدينهم، بل الدعوة إليه أيضا.

هذه المثل العليا العظيمة كان يجب على الأمة أن تتمثل بهم، ولقد رأبورة بن نوفل حين شاهد بلالا يعذب، أنه لومات على هذا الوضع من التمسك بدينه حتى الموت، رأى أنه يجب أن يتخذ مزارا طاهرا لمثل طاهر، وربما كان ذلك من الأسباب التى دفعت المركين إلى التخلى عن بلال وبيعه لأبى بكر رضى الله عنه، لأنهم كانوا يقدرون ما للمثل الأعلى الطاهر من تأثير، فها هو رسول الله ﷺ بذاتيته الطاهرة يؤثر فى أصحابه الأوائل، وهاهو بلال يقبل على الموت وهو يدوى بصوته فى جنبات الكون يهزه هذا عنيفا ليخلصه من شركه وبعده عن خالقه سبحانه وتعالى، فيدلهم على محور الوجود «أحد أحد» وينقل ابن كثير فى البداية والنهاية عن ابن إسحاق قوله [فكان بلال بن رباح صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أميه بن خلف يخرج له إذا حميت الظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع

(١) خالد محمد خالد رجال حول الرسول ص ٢٢٣.

على صدره ثم يقول له لا والله لا تزال هكذا، حتى، تموت، أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد الالة والعزى، فيقول وهو في ذلك: (أحد أحد) - وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب فيقول أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أميه بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح، فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذته حنانا].

لقد فطن أمية بن خلف إلى تلك الصلة القوية بين ذاتية النبي ﷺ الفاعلة وبين ذاتية أصحابها بالمنفعة. ولذلك طلب من بلال رضى الله عنه أن يكفر بمحمد ص، لكي يفصل ما اتصل بينهما. ولقد فطن أيضا ورقة بن نوفل بعلمه وخبرته أن بلالا لو قتل على هذه الحالة لأصبح مثالا للبشرية كلها مثال خير وطهر ونقاء وإذا لم يقتل فقد ضرب المثل فعلا وتركه ملكا لنا جميعا نستخلص منه العبر والعظات وهميات أن نوفيه حقه هميات.

ومع تجاهل التاريخ لهؤلاء الأعلام إلا أن مكانتهم ظلت محفوظة عند كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستقبل خباب بن الأرت ويفيه حقه وحين جاء خباب بن الأرت إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال أذن منى فما أرى أحدا أحق بهذا منك، فجعل خباب يريه آثارا في ظهره مما عذبه المشركون^(١)، وهذه شهادة من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأنه يستحق أن يدنوا من أمير المؤمنين دنورفعة وتكريم، لا أحد يستحق أكثر من خباب بن الأرت أحد الذين ثبتوا فكرة الإسلام في الأرض بما لا قوة في سبيل الله تعالى من عنت وتعذيب.

(١) ابونعيم الأصفهاني حلية الأوليا/ ج ١ ص ٣٥٩، ٣٦٠ دارالكتب العلمية بيروت.

غفلة التاريخ

توفر على كتابة التاريخ الإسلام مجموعة من العلماء الذين بذلوا الجهد وأفنوا العمر في جميع الأحداث والترجمة للأشخاص، وهو جهد مشكور أتاح لنا فيما بعد الللتتعرف على شخصيات المسلمين أيامهم. إلا أنه يؤخذ على كتاب التاريخ الإسلامى عموما احتفاؤهم بالأشخاص، والعمل الذى يقوم به، وموقعة فى البناء، الهرمى للنظام الإسلامى الإدارى، ولا يهتم كتاب التاريخ بالموقف، بلحظة الصدق، وبالتضحية، ولم يدرك هؤلاء المؤرخون أ، التاريخ - أى تاريخ - يُصتص بالمواقف.

والرواد الأوائل هم الذين يوجهون التاريخ، يصنعون التاريخ، وأما الذين يأتون من بعدهم فإنهم يعيشون التاريخ، هذا الخطأ المبدئى من كتاب التاريخ الإسلامى أدى - فيما بعد - إلى طمس الدور الفذ للأوائل فى الإسلام، والتعتيم عليهم كمثل عليا كان من الممكن أن تفتدى بها الأجيال التالية، نعم لقد وفوا رسول الله ﷺ بعض حقه فى التاريخ الإسلامى، ولكنه النبى والرسول والشخصية الفذة التى لم تتكرر فى التاريخ.

والإنسان العادى ينظر لهذه الشخصية بكل الإجلال والانهيار لكنه يستبعد أن يصل إلى درجتها فى التضحية والثبات فتظل تضحيات وإنجازات النبى ﷺ فروضا نظرية عند الذين جاءوا من بعده ولم يعاشروه.

ولكن الإنسان يجد ما يطلق عليه إمكان الفعل «والإنتقال من الفرض النظرى عندما يجد إمكان الفعل» عند إنسان عادى مثله، وهى مسألة هامة جدا ومنتشعبة، غير أننا نجملها هنا عند زاوية إهمال المؤرخين الأوائل الأعلام من الصحابة لأنهم ماتوا مبكرا، ولم يعيشوا طويلا بعد ذلك.

وأكبر دليل على ذلك ما سجله التاريخ الإسلامي لعمار بن ياسر، وهو الذى أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولم يهتم التاريخ الإسلامى بأبيه وأمه الذين ثبتا ثباتاً أضاف للإسلام جذورا مازال يعتمد عليها حتى الآن، ويستقى منها ما يجعله مخضرا يانعا، لا بأس، ماذا كان يحدث لورجع كل الأوائل عن دينهم - بفعل العذاب - بعد أن تلقوه من النبى ﷺ؟! ولو حدث هذا لاتقلب الدين - الذى هز الدنيا وغيرها - إلى مجموعة من الفروض النظرية البليغة، وانفصل عن الحياة، واستبعد من التطبيق نهائيا، وأصبح يشبه شعر الملاحم التاريخية.

ولا تظن أنى بهذا أعطى هؤلاء أكثر من حقهم، لقد كان بقاء الإسلام فعلا وكيانا يتعلق بثباتهم عليه، وموتهم - إذا اقتضى الأمر - من أجله، وقد علق رسول الله ﷺ بقاء عبادة الله تعالى واستمرارها فى الأرض، على بقاء تلك العصاة التى كانت تحارب فى بدر من المسلمين، وقال وهو يدعور به: [إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد بعد ذلك]^(١).

وهذا الحديث ذكر فى كتب السنة والسيره بروايات كثيرة إلا أنها لا تخرج عن هذا المعنى، فكما علق رسول الله ﷺ بقاء الإسلام، على بقاء هذه العصاة التى حاربت فى بدر، وهو قول واضح لا لبث فيه، كان الإسلام ومستقبل الإسلام متعلق بثبات أولئك الأوائل على دينهم، من غير أن يتضح لهم مستقبل الإسلام نفسه كدين يموتون من أجله، لقد إنفعلت ذواتهم بذات النبى ﷺ وفهموا منه معنى الحياة ومعنى الموت، ولكى نحدد موقفهم أكثر، سنرجع معا إلى آراء العلماء فى الذين أكرهوا وقلبهم مطمئن بالإيمان، والذين لم يكرهوا وأعلنوا مدوية «أحد أحد»

يقول الإمام الزمخشري: [وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه، مكرها، فقيل يا رسول الله إن عمارا كفر؟ قال [كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرن إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه]، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبى ﷺ يمسح عينيه وقال

(١) سيرة ابن هشام ج ١ غزوة بدر.

مالك؟: [إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت، فإن قلت أى الأمرين أفضل؟ قلت بل فعل أبوية. لأن فى ترك التقية والصبر على القتل إعزازا للإسلام].

وقد روى أن مسيلمة أخذ رجلين، فقال لأحدهما ما تقول فى محمد؟ قال: رسول الله، قال فما تقول فى؟ قال: أنت أيضا، فخلاه، وقال للآخر ما تقول فى محمد؟ قال: رسول الله، قال رسول الله، قال: فما تقول فى؟ قال صلى الله عليك وسلم فقال أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثانى فقد صدع بالحق فهيننا له^(١)

لا شك فى أن الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى، قد وضع يده على الفرق الهائل بين من أخذ برخصة الله تعالى، وبين من صدع بالحق، ووقف شامخا ليثبت فرضية الدين، وصحة هذه الفرضية، هذا الذى دفع حياته ثمن الصدق، وتصديقه.

ويقول الإمام أبو السعود فى تفسيره لقوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) يقول: وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر. عند الإكراه الملجئ. وأن كان الأفضل أن يتجنب عنه، إعزازا للدين كما فعله أبواه^(٢).. أى ياسر^(٣) وسمية، وهو يوافق الإمام الزمخشري فيما ذهب إليه، وكثير من المفسرين يرى: [أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي]^(٤).

هذه هى الرخصة التى أشار إليها الإمام الزمخشري من خلال حديث رسول الله ﷺ، وهى تجعلنا لا نشك فى إيمان أحد من الصحابة الكرام، ولا ننزلهم من منازلهم التى وضعهم الإسلام فيها.

(١) الإمام الزمخشري تفسير الكشاف ج٢ ص٤٢ ط دار المعرفة بيروت.

(٢) تفسير أبى السعود ج ٥ ص ١٤٣ ط إحياء التراث العربى.

(٣) أيوه هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانو. الإصابة ج ٤ ص ٥٧٥ ط دار نهضة مصر.

(٤) ابن حجر العسقلانى الإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ص ١٠، ١٩٩، ١٢٠ ط دار الفكر.

ولكن التفريق هنا تفريق في التصرف والاختيار، فقد كان من الممكن لياسرين عمار وزوجته سمية بنت خياط وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت وأم عميس وغيرهم، أن يستعملوا الرخصة من غير تبعة على إيمانهم، ولكنهم فضلوا عليها الثبات على الحق ثباتاً يظهر الحق ويقويه، ويقطع أمل العدو في النصر على هذا الدين.

لقد كانت صيحاتهمى التمسك بالحق وهم يعذبون، أشد وقعاً على العدو، من وقع السياط على أجسامهم. [إلا أن التاريخ لم يشهد رجالاً عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت في العدالة والسمو، ثم نزروا لها حياتهم على نسق تناهى في الجسارة والتضحية والبذل، كما شهد في أولئك الرجال حول الرسول ﷺ] (١)، وهم بهذا أمتازوا على الذين أكرهوا وقولهم مطمئنة بالإيمان، لأنهم أعطوا لعدوهم درساً قاسياً يوضح له قدسية العقيدة، ولذة التمسك بها.

[إن العقيدة أمر عظيم، لا هوادة فيها ولا ترخص. وثمن الإحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن، في نفس المؤمن، وعند الله تعالى، وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته، وهانت "عنده" الحياة وهان كل ما فيها من نعيم] (٢).

ولقد تحمل صحابة رسول الله ﷺ الأمانة وأدوها كاملة، وتفرقوا قبل أن يكتمل المنهج، وهم كطالب على تحقق له التفوق في علوم لم تدرس له بعد.

الهدف:-

يتسم السلوك الإنسانى الطبيعى بأنه سلوك هادف له غاية يمتطى الوسائل ليصل إليها. فأى هدف كان لهؤلاء قبل أن يكتمل الدين الذى آمنوا به، قبل أن تنتصر دولته، أو قبل أن يكون هناك بارقة أمل لذلك، وكلما سدت عليهم السبل، وذهبوا إلى رسول الله ﷺ كان يأمرهم بالصبر، ولا يعدهم بشئ قريب من مباحج الحياة.

(١) خالد محمد خالد رجال حول الرسول ص ١.

(٢) الشيخ سيد قطب في ظلال القرآن ص ٢١٩٧ ط دار الشروق ٩٨٧م.

وخباب بن الأرت يتحدث عن ذلك فيقول: (أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة تحت ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء، إلى حضرموت ما يخاف الله عز وجل، زاد بنان: والذئب على غنمة)^(١).

النظرية التي يقوم عليها هذا البحث واضحة جلية في هدى النبي الكريم في هذا الحديث الشريف، وهذه النظرية هي نجاح التجربة الدينية في نفوس أوائل معتنقها بمعزل عن العوامل المرغبة مثل النصر والفوز وغيرها من العوامل، وفي وجود عوامل الرهبة، مثل التعذيب والتنكيل والاضهاد، ونجاح التجربة عند الأوائل، وهو الأساس الذي تقوم عليه الدعوة فيما بعد. ولذلك نبه رسول الله ص، خباب بن الأرت إلى أنهم لابد أن ينجحوا في التجربة كما نجح الذين من قبلهم وبعد ذلك يأتي النصر ويمضى الراكب من صنعاء، إلى حضرموت لا يخشى إلا الله تعالى، والذئب على غنمه، ومعنى ذلك أن التجربة قامت ونجحت في أفئدة هؤلاء الأوائل بمعزل عن العوامل الخارجية التي تحمل الرغبة، وتحت ضغط الذل والقتل والتنكيل وقامت التجربة على عواملها الأولى ذاتية فاعلة وذاتية منفعة.

- العوامل الخارجية الموجبة:

من العوامل الخارجية الموجبة التي تؤثر على دخيلة نفس المؤمن العبادات وهي تلك الفروض التي تكرر في حياة المؤمن أحيانا كل عام، مثل الحج والزكاة والصوم، ومنها ما يكرر كل يوم مثل الصلاة. هذه العبادات تدعم الإيمان في قلب المؤمن. وهي ضرورية

(١) رواه البخارى ج ٩ ص ٢٦ ط دار الشعب. والطبرانى ج ٤ ص ٦٥ ط العراق وأبو داود ج ٢ ص ٨ رقم ط حمص سوريا.

لاستمرار هذا الإيمان، ومن يتركها جاحدا يحكم بكفره ولا خلاف بين المسلمين على ذلك، ورسول الله ﷺ جعلها دعائم يقوم عليها بناء الإسلام. ومن غيرها لا بناء، ولا إسلام.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»^(١). هذه الأركان لا غنى عنها لثبوت الإسلام الصحيح، والإيمان القوى، ومع ذلك فقد وصل الأوائل لأعلى درجات الإيمان من غير أن تفرض عليهم هذه الأركان - وهذا معنى نجاح الإيمان من غير أن تفرض عليهم هذه الأركان - وهذا معنى نجاح التجربة الإيمانية عندهم بمعزل عن العوامل الخارجية - وهذا ما يوضح قوة ذاتية الداعية الفاعلة التي أثرت في ذاتيتهم المنفعلة، وإليك حديثا موجزا عن الفروض وتاريخ فرضيتها.

الصلاة: فرضت قبل الهجرة بسنة على الأرجح.^(٢)

الصيام: فرض في شعبان في السنة الثانية من الهجرة.^(٣)

الزكاة: فرضت في السنة الثانية من الهجرة.^(٤)

الحج: اختلف في وقت فرضته والمشهور أنه بعد الهجرة وجزم به الرافعي، وقيل في السنة السادسة.^(٥)

من النظرة الأولى على تاريخ هذه الفروض يتبين لنا أنها جميعا لم تكن موجودة وقت ثبات ياسر وسمية وبلال وخباب ومصعب وغيرهم على إيمانهم، فكيف تم الإيمان من

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ٥ دار الجيل بيروت.

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ج ١ ط مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٧.

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٨.

(٤) عبيد الله الكوهي زاد المحتاج ج ١ ص ٤٣٥ ط المكتبة المصرية ببيروت

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٢.

غير مكملاته وتماماته؟ بل كيف وصلت التجربة الإيمانية إلى أقصاها، من غير عوامل التفاعل الخارجية؟

هذه أسئلة يحار العقل في الإجابة عليها. إذا لم ينتبه إلى دور الذاتية الفاعلة للداعية الأول: المصطفى ﷺ كان لا يستطيع أن يدفع عنهم أذى، ولا يجلب لهم نفعاً، ومع ذلك استمدت نفوسهم الصدق من صدقه.

وهذا الحديث يبين لك الظروف الاجتماعية والنفسية التي يعيشها هؤلاء الأعلام مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة. عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: [لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله، ص، لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ، في منعه من قومه، ومن عمه لا يصل إليه شئ مما يكره، ومما ينال أصحابه.

فقال لهم رسول الله ﷺ. [أن أراض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فيها فرجاً ومخرجاً] مما أنتم فيه» فخرجنا إليها إرسالا، حتى اجتمعنا بها^(١)

إذن لا فروض تؤدي يثبت بها الإيمان، ولإحماية قوية يركن إليها الإنسان، فماذا بقى إلا الذاتية الفاعلة الطاهرة على الدوام. وملاح هذه الذاتية الطاهرة نقلها المهاجرون إلى ملك الحبشة، فقد سألهم عن دينهم الذى من أجله تركوا الديار، وعذبوا، وعن الإنسان الذى اتبعوه، وعن صفاته فقالوا: [نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وعن ما جاء به النبى ﷺ أمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له..] ^(٢) تلاحظ في هذا النص عدم ذكر الصلاة والزكاة والصيام، وأن ما ذكرهنا يتعلق بالصفات الذاتية، فماذا كان تطبيق الأوائل لهذه الصفات.

(١) فتح البارى ج٧ ص ١٨٨ ط دارالمعرفة بيروت.

(٢) الإمام ابن كثير البداية والنهاية ج٢. بشئ من التفصيل في فقه السيرة للدكتور / محمد سعيد البوطى ص ٩٩

خذ مثلاً أداء الأمانة: كلفت امرأة من بنى عبد الدار الصحابية الجليلة النهديّة وابنتها بطحن قدر من الحبوب، بعد إسلام النهديّة وابنتها، وكانت تقول لهما والله لا اعتقكما أبداً وتدخل سيدنا أبو بكر واشترى المرأة وابنتها، وأمرهما بالخروج من الدار، ولم يكن الطحين قد اكتمل، فاستأذنتاه أن تنهيا عملهما أولاً ثم تنصرفا. فوافقهما على ذلك.

إذن التجربة الإيمانية نجحت وانتقلت الذاتية العظيمة، من الذات الفاعلة إلى الذات القابلة، أو المنفعلة، وقد تم ذلك بمعزل عن معظم العوامل الخارجية الإيجابية وفي وجود العوامل الخارجية السلبية الضاغطة.

بهذا نخرج بنتيجة هامة، وهي تحضير وتطهير ذات الداعية أولاً، قبل الإمام بمواد الدعوة وإتقانها، وهو موضوع القسم الثالث من هذا البحث.

الفصل الثانى

إعداد الذاتية الفاعلة

القسم الأول: تكوين الذاتية الداعية

تتكون ذات الداعية الصادق المؤثر من عناصر كثيرة تجتمع وتأتلف ليخرج من مجموعها ذات طاهرة صادقة، وقد رأينا فى الصفحات السابقة كيف أثرت الذاتية الصادقة الفاعلة، فى ذوات المدعوين، وذلك قبل أن يكتمل نزول القرآن، وتوضع للإسلام الأركان، ومن أبرز صفات الداعية الصادق ما يلى:

أ- تحضير ذات الداعية

صفة التحضير: وهى تلك الصفة التى تجعل الداعية لا يفاجأ بالرسالة، ولا يوجب الدعوة إلى الله تعالى، ولكنه يكون فى حالة يترقب فيها فجرا لا يعرف شمس، ولكنه ينتظر ضوءاً أتيا لا ريب فيه.

ومرحلة التحضير هذه تصقل نفس الداعية، لأنها تشعره أن له دورا، وأنه لابد أن يؤديه، ثم إنها بعد ذلك تضيف للنفس البشرية أبعادا كثيرة، منها البعد عن زيف الحياة، والوقوف على حقيقتها، ومنها الاتساع الأفقى لمدارك النفس البشرية. فالنفس فى مرحلة التحضير تتلخص من جاذبية المكان، ومؤثرات البيئة المحلية، وتستشرف آفاق الكون الواسع حتى تقف عند الحقيقة المبدئية الأولى، وهى كون واحد خلقه إله واحد، ويجب أن يخضع لإله واحد، ومن هنا يبدأ الإحساس الصادق بواجب الدعوة إلى الله تعالى. ويبدأ النجاح فى هذه الدعوة ويصبح حقيقة لا ريب فيها.

أما أولئك الداهلين عن هدفهم، والمغروسين في واقعهم، ومنهم أولئك الدعاة الذين يدفع بهم إلى حقل الدعوة من غير رغبة منهم فيها فهؤلاء يتحولون مع الوقت إلى دعوة على الإسلام، لا دعوة له، ومن هنا جاءت أهمية مرحلة التحضير في تكون ذاتية داعية طاهرة، ومؤثرة، ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة - الهواية - وهي أن يهوى الداعية دعوته قبل أن يقوم بها، وبذلك يعمل بإخلاص - غير معلل - يكون دافعا ونافعا لدعوته.

أما ما نجده من إقبال بعض الدعاة على العمل في حقل الدعوة، مكدرين النفس وأفئدتهم هواء، فهؤلاء لا يرجى منهم خيرا، وإن هم أقبلوا عليه. وحاولوا فعله، وقصارى ما يصل إليه هؤلاء يعتبر دربا من دروب التزكية الذاتية التي لا تنتقل إلى غيرهم، لأن الدعوة العامة إلى طاعة الله تعالى، لم تكن شاغلهم في يوم من الأيام.

وإذا كانت شخصية النبي ﷺ هي الأسوة والقدوة بالنسبة لكل الدعاة على الأزمان. فإن دراسة هذه الصفات في تلك الشخصية ستكون دراسة حرية بالصدق، ومنطبقة على الواقع الفطرى للنفس البشرية، وذلك يوظف طريقتين الأولى أنه ﷺ هو الذاتية المؤثرة بمعزل عن العوامل التي استخدمت أساسا للدعوة بعد ذلك، والثانية أنه أكمل الشخصيات السوية في كل العصور.

وعن مرحلة التحضير في حياة النبي ﷺ يقول ابن هشام: [قال إسحاق: عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والتحنث: التبرر]^(١).

هذا النص يؤكد على مرحلة التحضير عند المصطفى ﷺ كان يؤكد هلى أن الخلوة والتأمل هي من الأشياء التي يرغب فيها ويصبر عليها، وعن نهاية مرحلة التحضير - حين

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٢ ط المكتبة التوفيقية والتنرر تفعل من البر. وتفعل يقتضى الدخول في الفعل مثل تعبد وتنسك. الروض الأنف ج ١ ص ٢٦٧.

أكملت النفس الطاهرة استعدادها - تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: «أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي غار حراء يتحنث فيه (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو غائر»^(١)

وهذا النص يفيد ما يلي:

١ - أنه أثبت أن التحنث في غار حراء كان مرحلة من مراحل من مراحل التحضير بعد الرؤيا الصادقة، ولم يكن تحنيثا على طريقة قريش كما تفيد رواية ابن هشام عن ابن اسحاق عن عبيدة بن عمير عن قتادة لأن رواية ابن هشام لا تطمئن النفس إليها.

٢ - أن حديث السيدة عائشة رواه الإمام البخارى في صحيحة مع اختلاف طفيف^(٢) في بعض الألفاظ ولذلك فهي رواية معتمدة.

٣ - أنها تجعل من التحنث في الغار حالاله ﷺ فتقول حتى فاجأه الحق وهو غائر. وهذا يدل على انصراف النبي ﷺ عن متع الحياة ولهوها لينتظر شيئا تهفوا نفسه إليه. لا يعرف ما هو على وجه التحديد، ولكنه يعرف أن تلقى هذا الشئ يحتاج إلى تحضير وتطهير^(٣) لأنه أمل صادق تحتاجه حياة - تعيسه في مكة - لا أمل لها، ولا صدق فيها.

(١) ابن الجوزى الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٦٢ ط دارالكتب الحديثة ١٩٦٦.

(٢) مثل فكان يأتي غار حراء فيتحدث فيه: وكان يخلو بغار حراء فيتحدث فيه وهو اختلاف لا يؤثر على صدق الرواية.

(٣) هذه الطهارة القبيلة تخرج موقف كثير من الدعاة. توضح سبب فشلهم في دعوتهم فليس من المستساغ - علميا - أن يظل الإنسان سادرا في هواء ردحا من الزمن، ثم ينقلب فجأة إلى داعية. لأنه حصل على شهادة تفيد ذلك إن موقف هذا الداعية يحتاج إلى مراجعة لا غنى عنها. ولعله يبدأ من جديد بداية يحدها الندم. وتظللهما التقوى، ومن غير هذه البداية الجديدة لا أمل في نجاح دعوة هذا الداعية وإن حصل كل العلوم وبرع في كل الفنون.

٤ - أن السيدة عائشة رضی الله عنها تقول: (ثم حبب إليه الخلاء)، وهذه الجملة وحدها، تظهر الحالة التي كان عليها النبي ص، ومن ترك للتفاصيل الكثيرة، والأمور الصغيرة التي كانت تتفاعل بها الحياة الضيقة في المجتمع المكي القبلي الوثني.

لقد سمعنا رسول الله ﷺ - في مرحلة التحضير - بأخلاقه حتى أصبح حكما يرجى رأية في أد القضايا حساسية في المجتمع المكي، وهذه الحالة ليست من السهولة في مجتمع يقدس الرجولة، ويعشق الحكمة، وتوزن فيه أحلام الرجال بدقة تعبيرهم، واعتدال تصرفاتهم، ومع ذلك وصل النبي ﷺ إلى الذروة في الفضل والكمال. وهو ما زال بعد في المرحلة التحضيرية، ولعل هذا كان إرهاصا بتحملة بعد ذلك للرسالة الكبرى.

حكم وقضية

الحكم هو النبى ص، والقضية هى وضعالحجر الأسود فى جدار الكعبة الشريفة، ومن من القبائل يكون له شرف هذا الوضع، فبماذا قضى النبى ﷺ: [قال ابن اسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك يسقفونها ويهابو هدمها، وإنما كانت رضما حجارة بعضها على بعض من غير ملاط فأرادوا رفعها، وتسقيفها..

قال ابن اسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها. كل قبيلة تجمع على حده، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاخصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعة إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما. ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة، فسموا: لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم أنهم اجتمعوا فى المسجد. وتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم - فيما تختلفون فيه - أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ص، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه بالخبر قال رسول الله ص: (هلم إلى ثوبيا، فأتى به، فأخذ

الركن فوضعه فيه بيده. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه) كانت قريش تسمى رسول الله ﷺ [الأمين]^(١).

هذا النص الذى نقله ابن هشام عن اسحاق يفيد فى مجمله أن النبى ص، قد بلغ مكانة ريفة فى نفوس القرشيين قبل البعثة، أنهم أرتضوه حكما لأنها، الصراع بينهم، والذى أوشك على القتال بينهم، وهذا ما يؤكد أن النبى ﷺ قد بلغ مكانة عظيمة فى مرحلة التحضير، وأصبح نافذ الرأى بين أهله. إلا أن زاوية النص بهذه الطريقة لا تخلو من ملاحظات.

الملاحظة الأولى:

يقول الرواة إن أمية بن المغيرة أشار على القوم بتحكيم أول داخل عليهم من الباب» وهذا الكلام لا يسلم من النقد، فمن ذا الذى يصدق أن كبار الرجال فى قريش - وبعد أن وصل الأمر بينهم إلى الاقتتال - يلغون عقولهم الحصيفه ويخضعون للصدفة العمياء ويحكمون أول داخل، وهذا النص ليس فيه إساءة فقط إلى الرجال من قريش، بل فيه إساءة بالغة إلى دور النبى ﷺ فى إنهاء هذه الفتنة، لأنه يجعل دوره قائما على المصادفة والمفاجأة، وليس قائما على حكمة حصل عليها عبر جهود شاقة، إن رواية ابن اسحاق غير مقنعة وهو نفسه يظهر شكه فى هذه الرواية بهذا الشكل حين يقول» وهذه الرواية تسوى بين النبى ص، بحكمته البالغة النضج، وبين أى رجل من السائلة فى مكة.

الملاحظة الثانية:

إن بعض كتاب السيرة - يصفون الجانب الظاهر فقط من كل قضية يتناولونها. من غير تمحيص، وإن كان لهم فضل فى التاريخ الإسلامى فهو فضل النقل فقط، ولعل القصة التى بين أيدينا هى من أكبر الأدلة على هذا الإتجاه - عند كتاب السيرة.

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٣، ٢٠٤.

والذى ترتاح إليه النفس أن مشاورات كثيرة ولقاءات طويلة قد حدثت في مكة في فترة الأربع أو الخمس ليال التي استمر فيها النزاع، وهي فترة كافية للوصول إلى حل لهذا النزاع، في مجتمع محدود مثل مكة المكرمة. ولعل النبي ﷺ شارك في هذه المفاوضات بين أهل مكة والمقطوع به أنهم اتفقوا على تحكيمه في هذا الصراع، وأن ينزلوا على حكمه، وقد سجل الرواة لحظة التنفيذ فقط ولما حاول فهم السر من وراء «أول داخل» وهذه الطريقة في سرد السيرة النبوية هي من الغيوم التي تنعقد في سماء السيرة النبوية الشريفة، فتحجب الرؤيا، وتغيب الحقيقة.

الملاحظة الثالثة:

أنهم لما رأوه قالوا هذا الأمين. محمد رضينا، وهذا يثبت الخلفية الطاهرة للذات الطاهرة للنبي ص، وهذا واضح من النداء المفعم بالاحترام، «هذا الأمين.. رضينا». ويبقى السؤال: ماذا لو دخل غير الأمين هل كان سيتفق القوم. أم كانوا سينتظرون الأمين حتى يأتي؟ وما الذى لا يجعلهم يتفقون عليه قبل التنفيذ بيوم أو يومين؟ طالما أنه الأمين المعرف بالأمانة "ال أمين" هل كان في مكة أمين غيره يختصم إليه القوم؟ لم يكن غيره فهو الأمين، وهو الحكيم، وهو الطاهر، وكل ذلك في مرحلة التحضير للرسالة.

حلف الفضول

يقول النبي ﷺ عن حلف الفضول^(١): [لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أذى إليه في الإسلام لأجبت]^(٢).

ويقول الدكتور رؤف شلبي عن اشتراك النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول [ولم يكن سيدنا محمد ص، واحدا من الناس يوم أن استجاب إلى هذا الحلف الذي وظف نفسه لإقامة العدل من أجل العدل ذاته، ولكنه كان عملا واستجابة وعمل متفق مع الحاسية والوجدان الاجتماعى الذى حفل به الصدر المحمدى الكريم، فكان هذا الاشتراك في حلف الفضول تهيئة اجتماعية لدرء المظالم، ورد الحقوق وإقامة العدل الاجتماعى، دون مقابل أو أجر]^(٣).

وعن تسميته بالأمين يقول: [لم يكن وصفا عابرا، ولا كلمة مجاملة، ولكنه كان خلقا عند القوم أخذوا به. وارتضوه حكما. وقاضيا يوم أن أعلنت ألسنة الحرب والدمار والخراب]^(٤).

هذه الكلمات الطيبة تعبر بصدق عن مرحلة التحضير التى سبقت مرحلة التطهير مرحلة التحمل والأداء، والاشتراك في حلف العدل والخير - حلف الفضول - والقضاء بين سكان مكة، ونزع فتيل الحرب من بينهم ليست كل مواقف الحبيب المصطفى ص، في المرحلة التحضيرية. ولكنها نموذج لما كان عليه الحال بالنسبة لهذه الذاتية الفاعلة

(١) اتفاق جماعة من قريش على الدفاع عن الحق ورد المظالم وشهده النبي ﷺ .

(٢) سيرة ابن همام ج١ ص ١٤٠ روى الحديث ابن اسحاق عن عبدالله بن عوف الزهرى.

(٣) د/ رؤف شلبي المجتمع العربى قبل الإسلام ص ٣٠٨ ط دار الكتب الحديثة.

(٤) المرجع السابق ص ٣١١.

تطهير ذات الداعية

وصفة التطهير بالنسبة للنبي ﷺ تختلف عنها بالنسبة للدعاة جميعا في كل زمان ومكان، لأن النبي ﷺ ذات النبي ﷺ إلا ترسيخ لصفة الكمال عنده، ورفع لدرجته على العالمين، أما التطهير بالنسبة لباقي الدعاة فهو محاولة مستمرة - بالعبادة والطاعة - لتنية ما عسى أن يكون قد لحق بذاتية الداعية من صفات تناقض دعوته، أو تعطل سيره، أو تحجبه عن الرؤيا الصحيحة لأوامر الإسلام ونواهيه. وماضى الإسلام وحاضره ومستقبله. ولكي تكون المعالجة لتطهير ذاتية الداعية معالجة علمية، يجب أن نبدأ بذات الداعية الأول: المصطفى ﷺ. ومع التنبيه دائما على أن التطهير في حقه رفعة وفي حق غيره من الدعاة دفعة إلى الأمام، وهذه المرحلة التي نتحدث عنها بدأت مع بداية الوحي، وكان التركيز فيها واضحا على تكليف النبي ﷺ ببعض العبادات التي ترفع شأنه كداعية وتجعله أهلا للتلقى، وكفنا للتحمل.

بعد أن استمع الرسول ﷺ إلى الوحي الأول من الأمين جبريل عليه السلام، تعرف على ربه سبحانه وتعالى من قوله تعالى:

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (١).

بعد أن استمع النبي ﷺ إلى هذا النداء في غار حراء الذي كان يخلو فيه الأيام ذات العدد، خرج منزعجا وعاد إلى بيته (٢). وإلى زوجته خديجة رضى الله عنها ونام متزملا: ناداه الأمين جبريل ليوقفه وبلغه رسالة الحق سبحانه وتعالى:

(١) سورة الفلق ١: ٥

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج١ ١٦٣ ٢٤٣ ما بعد.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ قُرِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ ۖ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

هذه الآيات ترسم الطريق الذي يجب على الداعية أن يسلكه لتزكية نفسه، قبل أن يبدأ في تزكية نفوس الآخرين، وسوف أنقل هنا رأى بعض المفسرين موجزا للوقوف على معنى الآيات المباركة، وأبدأ برأى العلامة ابن كثير (يأياها المزمّل قم الليل الا قليلا)، يأمر الله تعالى رسول الله ص، أن يترك التزمّل، أى التغطى بالليل، وينهض إلى القيام إلى ربه سبحانه وتعالى: ﴿نَصَفَهُ ۖ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾: أى أمرناك أن تقوم نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾: أى اقرأه على تمهّل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾: قال الحسن وقتادة أى العمل به، وقيل ثقيل وقت نزوله من عظّمته.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: يقال نشأ إذا قام من الليل، وهى أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أى أكثر من ذكره. وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذ فرغت من أشغالك. ما تحتاج إليه من أمور دنياك^(٢).

فى هذه السطور للعلامة ابن كثير ملامح عامة: عن إعداد النبى ص، من قبل ربه سبحانه وتعالى، ومن قبل نفسه لتحمل الرسالة، وتحمل القول الثقيل، وبرغم كثرة الآراء

(١) المزمّل ١: ٩

(٢) نقل بياجاز عن تفسير ابن كثير ج ٤ ﷺ ٤٣٥: ٤٣٧.

التي نقلها ابن كثير عن ثقل جسم النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي، إلا أن النفس تميل إلى إلى رأى الحسن وقتادة: أن ثقل القول يكون في العمل به، أى المسئولية التي سيتحملها، ومن هذه الآيات وتفسير ابن كثير لها، تبرز صورة الإعداد والتطهير لذاتية الداعية، لكي يتثنى لها التأثير في دوات المدعوين فيما بعد.

ويقول الشيخ سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات السابقة: [إنها دعوة السماء وصوت الكبير المتعال: قم. قم للأمر العظيم الذى ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والجد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد... إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمنة. قيام الليل: أكثره: أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه، وأقله: ثلث الليل... كان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله تعالى..

وهذا هو القرآن وما وراءه من التكاليف والقرآن فى مبناه ليس ثقيلًا فهو ميسر للذكر، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق. ثقيل فى أثره فى القلب.. وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل... وإن الاتصال بالمأ الأعلى وروح الوجوه، وأرواح الخلائق الحية الجامدة، على النحو الذى تهيأ لرسول الله ص، يحتاج إلى استعداد طويل.. وأن الاستقامة على هذا النحو الذى تهيأ لرسول الله ص، يحتاج إلى استعداد طويل.. وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا أرتياب، ولا تلفت هنا أو هناك، وراء الهواتف والجوانب والمعوقات ثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل^(١)

نكتفى بهذا القدر من تفسير الشيخ سيد قطب لهذه الآيات، وهو يوضح دلالة الآيات الكريمة على وجوب استعداد الداعية بالعبادات والتطهير والتركيز، لكي يستطيع القيام

(١) الشيخ سيد قطب فى ظلال القرآن ج ٦ ﷺ ٣٧٤٤، ٣٧٤٥ ط دار الشروق.

بعبء الدعوة بعد ذلك ولذلك فهو يقول بعد هذه السطور: [إن قيام الليل والناس نيام، والإنقطاع عن عيش الحياة اليومية وسفاسفها، والاتصال بالله تعالى، وتلقى فيضه ونوره.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل]^(١). يوضح المؤلف فى هذه السطور أن واجب الإستعداد للدعوة يلزم كل الدعاة الذين يتصدون لهذه الدعوة. وليس خاصا بالنبي ﷺ .

- آيات سورة المدثر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ نَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾^(٢).

هذه الآيات المباركة مثل آيات سورة المزمل تحض النبى ص، على القيام بالدعوة لله تعالى، والقيام بواجب الدعوة، وهو تزكية الذات لكى تكون ذات فاعلة، يمكنها التأثير فى غيرها من ذوات المدعوين، وقبل أن نخلص إلى نتائج هذه الآيات نستطلع رأى بعض علماء التفسير لكى تكتمل الصورة من عدة زوايا للرؤيا.

رأى الإمام ابن كثير^(٣):

فى بداية تفسيره لهذه الصورة يحاول الإمام أن يجمع بين الرواية التى تقول: إن سورة المدثر هى أول ما نزل من القرآن فىقول [ووجه الجمع أن أول شئ نزل بعد فترة الوحي هذه السورة. كما قال الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (ثم فتر الوحي عنى فبينأنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا

(١) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٧٤٥.

(٢) سورة المدثر ١: ٧.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٤٠: ٤٤١.

الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السما والأرض، فجثيت منه فرقا، حتى هويت إلى الأرض. فجئت أهلى فقلت لهم زملونى. فزملونى.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ ۝١ قُرْآنًا نَّذِيرًا ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِيرًا ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرَ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾. ثم حى الوحى وتتابع) أخرجاه من حديث الزهرى.

وقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا نَّذِيرًا﴾ أى شمر عن ساق العزم وأنذر الناس. و﴿وَرَبِّكَ فَكَبِيرًا﴾ أى عظم. ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرَ﴾ عن ابن عباس: لا تلبسها على المعصية، ولا على غدره. وعن ابن عباس أيضا فطهر من الذنوب. وعنه أيضا: طهر من الإثم، وقال مجتهد: نفسك ليس ثيابك، قال أيضا أى عمك فأصلح، وقال قتادة: أى طهرها من المعاصى، وقال محمد بن سيرين أى اغسلها بالماء، وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب والحسن البصرى: وخلقك فحسن.

- ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ عن ابن عباس. الرجز وهو الأصنام فاهجر. وقال إبراهيم والضحاك أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشئ من ذلك.

- ﴿وَلَا تَمَنَّ نَسْتَكْبِرُ﴾ قال ابن عباس: ولا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وقال الحسن البصرى: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وعن مجاهد لا تضعف أى تستكثرن من الخير.

- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عزوجل، وقال إبراهيم الحنفى: أصبر عطيتك لله عزوجل.

يركز الإمام ابن كثير فى الآراء التى جمعها عن العلماء، والآراء التى قالها هو، على أن تظهر ذاتية الداعية هو المقصود بهذه الآيات، وقد نقل عن غير واحد من السلف الصالح، أن معنى وثيابك فطهر "تطهير الذات" وليس الثياب. وفى "ولا تمنن تستكثر" أميل إلى رأى الإمام الحسن البصرى، وإن قد أتى به متأخرا.

- رأى الشيخ / سيد قطب؛

يرى الشيخ سيد قطب أن هذه تتعلق بذاتية الداعية ويتحدث عن وقت ومناسبة نزول هذه الآيات فيقول: [إن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ربما يكون قد نزل مبكرا في أول أيام الدعوة، شأنه في ذلك شأن مطلع سورة المزمل. إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ وَكَيْلًا﴾.

وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعية الكبرى، ومواجهة كافة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا. مما سيترتب عليه مشاكل كثيرة ومتنوعة، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسى سابق.. وأيا ما كان السبب والمناسبة، فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوى بإنتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل. وإنتزاعه من النوم والتدثر، والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة [يا أيها المدثر رقم فأنذر] مع توجيهه - ﷺ - إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم، والإستعانة عليه بهذا الذى وجهه الله تعالى إليه.

﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۗ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ والإنذار هو أظهر ما فى الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب، الذى يترصد للغافلين الساديين فى الظلام وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله تعالى بالعباد، وهم لا ينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون، ولا يزيد ونفى ملكه شيئا حين يعتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية، ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة، ومن الشر الموبق فى الدنيا...

ثم يوجه رسوله فى خاصة نفسه بعد أن يكلفه نذارة غيره، يوجهه إلى تكبير ربه ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [وربك فكبر] ربك وحده الكبير يقرر جانبنا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية، ومبنى التوحيد.. أن كل أحد وكل شئ، وكل قيمة صغيرة... والله وحده هو الكبير.. وتتوارى الأجرام والأحجار والقوى والقيم والأحداث والأحوال، والمعانى والأشكال، وتنمى فى ظلال الجلال والكمال، لله الواحد الكبير المتعال، وهو توجيه للرسول ﷺ -

ليواجه ندارة البشرية، ومتاعها وأهوالها وأثقالها، بهذا القصور وبهذا الشعور، فيستصغر كل قوة، وكل عقبه، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه الندارة، وهو وحده الكبير، وشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

ويجبهه إلى التطهير، ﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾ وطهارة الثياب كناية فى الإستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل، طهارة الذات التى تحتويها الثياب، وكل ما يلزم بها أو يمسها. والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من المملأ الأعلى، كما أنها ألصق شئ بطبيعة هذه الرسالة. وهى بعد هذا وذاك ضرورية لملازمة الإنذار والتبليغ ومواصلة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء، والمداخل والدروب، وما يصاحب هذا ويلازمه من أدراى ومقاذر وأخلاق وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كى يملك استنقاذ الملوئين دون أن يتلوث، وملابسه المنسبين من غير أن يتدنس، وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات المدنسين من غير أن يتدنس، وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط، وشتى البيئات، وشتى الظروف، وشتى القلوب...

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ والرسول ﷺ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الإنحراف - ولكنه يعنى تحرز بالتطهر من مس هذا الدنس.

- يوجهه إلى إنكار ذاته. وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير. وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثر، ويمن به، وهذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه.

- ويوجهه أخيرا الصبر، والصبر لربه ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة، معركة الدعوة إلى الله تعالى، المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس، وأهواء القلوب^(١).

نقلت هذا النص بطولة للمرحوم العلامة الشيخ سيد قطب لأنه استوعب كثيرا من جوانب عملية التطهير الذاتية والتي تشير إليها هذه الآيات المباركات.

تعقيب أول

بعد أن قدمنا - في خلال هذا البحث - للذاتية الفاعلة، والذاتية المنفعلة، وجدنا أن ميدان الدعوة الإسلامية مازال خصبا، وغنياب العبر والدروس التي تساعد الباحثين في هذا المجال، وتضئ لهم الطريق إلا أنه يجب التنبيه إلى:

أن التاريخ الإسلامي خاصة السيرة النبوية الشريفة لم يكتب بطريقة تتيح للباحث الاستفادة من تلك الدروس العظيمة التي في أشاء هذا التاريخ، وأكبر الأدلة على ذلك، ما كتب عن سيرة الرواد الأوائل الذين ضحوا بحياتهم ليحافظوا على عقيدة التوحيد خالصة لا ريب فيها. وضربوا أروع الأمثلة في التمسك بعقيدتهم. والتضحية في سبيلها، ولكن التاريخ - أو كتاب التاريخ لم يقفوا عند تاريخ هؤلاء ليمحصوا، ويفسروا ويعطوا الحدث حقه من البحث والدرس، بل نقلوا إلينا أخبارهم سريعة موجزة. مع اشتهار هؤلاء الكتاب بالإطناب والسردي في أمور غير ذي قيمة، مثل نقل كثير من شعر الهجاء بين الفرق المتخاصمة.

ويؤخذ أيضا على التاريخ الإسلامي إهماله لحقيقة الحدث. ومغزاه وإهامام بعض كتابه بالتفاصيل الكثيرة، من أمثلة ذلك: قصة تحكيم النبي ﷺ بين أهل مكة في وضع الحجر الأسود في مكانه، وكيف أن معظم مصادر التاريخ الإسلامي، أو السيرة النبوية الشريفة تؤكد أن ذلك قد تم بالصدفة البحتة، من غير مقدمات تقوم على أسس متينة.

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ﷺ ٣٧٥٢: ٣٧٥٥.

تعقيب ثان

أنه ثبت أن الذين دخلوا فى الإسلام فى بداية الدعوة كانت نصوص الإسلام التى نقلت إليهم قليلة فى عددها، صعوبة فى الحصول عليها، بله التوفر على دراستها. وثبت أيضا أنهم أسلموا قبل أن تفرض أركان الإسلام المعروفة ما خلا ركن الشهادتين. وإذا كان الإسلام الكامل لا يقبل الآن بتنفيذ هذه الأركان، إلا أن إيمان الأوائل كان قويا فتيا صلبا لا لين فيه، وهذا يفتح الباب لكثير من الدراسات عن طبيعة إيمان هؤلاء، وعن عناصر إيمانهم، وهذا يفيد فى التركيز على الناحية الروحية عند الداعية والمدعويين على السواء، مع عدم إهمال الأركان الإسلام الظاهرة، التى جعل رسول الله ﷺ بناءه. يقوم عليها - وإذا كان هذا البحث قد ركز على ذاتية الداعية للبحث عن سرايمان وإخلاص الأوائل إلا أن البحث لا يصل إلى غايته الكاملة إلا ببحث ذاتية المدعويين فى هذه الفترة أيضا لإستخلاص النتائج منها ليكون ذلك منهجا متكاملا مبسوطا أما الدعاة. وستبقى الدعوة لكل من يريد أن يدلى بدلوه.

الفصل الثالث:

نتائج هامة

(يجب أن نبدأ من هناك)

نتائج البحث:

لهذا البحث عدة نتائج منها: تصحيح بعض الأخطاء التاريخية، وإثبات أن الرواد الأوائل قد كمل إيمانهم، قبل أن تكمل أركان الإسلام وكيف أننا لم نصل إلى منزلتهم في الإخلاص والتضحية وبين أيدينا القرآن الكريم كاملا، ومئات التفاسير حول مضمونه، والسنة الشريفة ومئات المؤلفات حولها، وآلاف مؤلفة من الكتب الإسلامية في موضوعات شتى، أى أن كم المعلومات الذى يحصل عليه المسلم العادى الذى لا يتمسك بدينه كما يجب، يساوى آلاف المرات تلك المعلومات القليلة التى كانت تضئ رأس بلال بن رباح، وهو يهتف فى رمضاء مكة أحد أحد والتى كانت تشرق فى أعماق ياسر بن عامر، وزوجته سمية بنت الخياط، وهما يسلمان الروح لبارئهما سبحانه وتعالى، وعصابة الشرك تمثل بهما أسوأ تمثيل وتنكل بهما تنكيل، وهما يتحملان ذلك. وقد جعلنا الله تعالى غاية، والثبات على دينه بداية ونهاية.

وهذه بعض النتائج التى كشف البحث عنها.

ولكن هناك نتيجة أساسية إنتهى إليها البحث. وهى طهارة الذاتية الفاعلة، وتأثيرها على المدعويين، وقد وصل البحث إلى هذه النتيجة حين قمنا بدراسة ثبات المدعويين على

الإسلام حتى الموت في الوقت الذي لم يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا الآيات القليلة، ولم تكن أركان الإسلام قد فرضت بعد، لم تكت الدولة الإسلام الفتية قد ظهر ضوءها في الأفق. فلم يبق إلا أن الذي قد أثر في هؤلاء الأوائل العظام، هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ﷺ . أي أنهم إقتنعوا به داعيه. قبل أن تكتمل دعوته، ولما علموا منها القليل، ضحوا بحياتهم في سبيل حماية هذا القليل وتوريثه إلى الأجيال التالية من أبناء الإسلام.

وتفيد هذه النتيجة - قوة الذاتية الفاعلة - في حفل الدعوة الآن أنها تجعل الداعية المعاصر يبدأ البداية الصحيحة. على الطريق الصحيح وتكون بدايته تطهير ذاته، وثقلها بالإيمان، حتى يتاح له ينقل حرارة الإيمان بعد ذلك إلى قلوب المدعويين، وهذه هي البداية الصحيحة لكل داعية ناجح في دعوته، وهي مأخوذة من سيرة إمام الدعاة المصطفى ﷺ ولا بد للداعية الذي يريد لدعوته النجاح أن يمر بمرحلتى التحضير والتطهير، حتى تتكون لديه ذات فاعلة طاهرة، وقد سبقت آيات سورة المزمل حيث جاء إعداد الداعية. قبل تحديد معالم الدعوة التي سيقوم بها. والإعداد هنا هو الإعداد النفسى الداخلى للفرد. وهذا هو أساس الذاتية الفاعلة.

في عصرنا الحاضر ينقسم الدعاة بحسب مواردهم الثقافية وتوجهاتهم النفسية إلى أقسام عديدة. فيوجد الداعية الذي يعتمد على الجدل الكلامى ويعتبروه ذروة الأساليب المقنعة. ويوجد الداعية الذي يعتمد على ما يحفظه من أحاديث الرسول ﷺ ومنهم من يعتمد على الشعر والبلاغة اللفظية، ومنهم من يعتمد على الأساليب الوعظية الإنشائية. وبالنسبة للتوجهات النفسية فهناك الداعية صاحب الإتجاه السلفى الذي يتمسك بظاهر النصوص دون النظر إلى ما تشتمل عليه من معان روحية. وهناك الداعية صاحب الإتجاه الصوفى الذي ينظر للدعوة على أنها دعوة للعبادة فقط، وليست إطارا يحتوى الدين والدنيا معا. المهم أن كل صاحب إتجاه في الدعوة إلى الله تعالى يظن أن إتجاهه هو

الأمثل للتأثير على المدعويين، ويجادل أصحاب الإتجاهات الأخرى، وفي هذا الصراع بين الإتجاهات والتوجهات، تنزوى القضية الكبرى، واللبنة الأولى في بنيان الدعوة الإسلامية، ألا وهى قضية تطهير الذاتاتصبح ذاتا فاعلة. وكما ينبغى للداعية أن يلم بكثير من العلوم التى يستخدمها فى دعوته، فإن عليه قبل ذلك أن يحصل شيئاً من التقوى يؤسس عليه هذه الدعوة وينتقل عن طريق التطهير بذاته من الذات الخاملة إلى الذات الفاعلة.

أى يجب على الداعية أن يبدأ بالنظر إلى دخيلة نفسه ينقيها ويطهرها، فإذا أدرك أنه قطع شوطاً لا بأس به، بدأ ينظر إلى خارج نفسه، وبدأ يستعمل زاده الروحي فى نقل روحانيات الشريعة إلى قلوب المدعويين.

ومن الملاحظ أن بعض الدعاة ينظرون إلى جهدهم المبذول فى الدعوة إلى اللع تعالى نظرة "كمية" أى يقيسون نجاحهم بكم المحاضرات والدروس التى ألقوها. وشرحوها، ولا ينظرون إلى "الكيف" وهو تأثير هذه المحاضرات على المدعويين، ولو اقتصدوا فى جهدهم المبذول بعض الشئ، واتجهوا لذواتهم، فقوموا إعوجاجها، وغسلوا أدرانها، وأزالوا شكها، وزكوها، وسألوا الله تعالى أن يزكها لهم لنجح مسعاها.

ومن الدعاة من يرجو بدعوته الدنيا، فهى تعنى عنده الجاه والمال، أو أحدهما، ولديه كثير من الأدله الى تسوغ له ذلك. ومع ذلك يشكو من إنصراف المدعويين عنه، وهو لا يعلم أن نجاحه فى دعوته يبدأ من ذاته، فالذات الطاهرة ذات فاعلة، وصدق مشاعر الداعية هو حجر الزاوية فى نجاح دعوته وسيرها متدفقة فى قلوب المدعويين، ولا بد أن نفرق دائماً بين الدعوة التى تؤثر فى نفوس المدعويين، وبين الدعوة، وفى سلوك المسلمين الأوائل، وكيف أثرت فيهم ذات المصطفى ﷺ قبل أن يكتمل القرآن نزولاً، وتتم أركان الإسلام فروضاً.

.....ويجب أن نبدأ من هناك.

الباب الثاني

الذاتية المنفعلة

الفصل الأول

الجانب النظرى من انفعال الذات

يتشابه الأفراد والجماعات فى كثير من أوجه النشاط الإنسانى، ويظل لكل فرد أو جماعة ميزة خاصة تعبر عن الذاتية أو الشخصية المستقلة لهذا الفرد أو لهذه الجماعة، وهذا البحث يهدف إلى بيان الصورة الذاتية للأوائل اللذين اعتنقوا الإسلام بذاتية منفصلة، استقبلت الإيمان وخالط شغاف قلوبهم، لم تبلور سلوكا حبا متجاوبا.

هذه الدراسة لا تركز على الناحية التاريخية، أو القصصية فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولكنها تركز على الناحية النفسية، وعلى أبرز جوانبها وهو التجاوب الصادق مع الدعوة الإسلامية تجاوبا لم يترك مسافة واضحة بين القول والفعل، أو بين الفكرة والعمل. وهذا التجاوب يسمى عند علماء النفس بالإنفعال، أو الوجدان ويرى فرويد (أن الوجدان أو الإنفعال حالة شعورية. ولكن الأفكار لا يمكن أن تكون لا شعورية لأن الفكرة بحكم أنها فكرة شعورية. وإذا كانت لا شعورية فإنها ليست فكرة. وقدموا نفس الاعتراض على الانفعال، فالانفعال لا يمكن أن يكون لا شعوريا، وهو انفعال فقط لأنه شعورى^(١).

فالإنفعال حالة شعورية تعترى الفرد. وتجعله ينفعل ويكون ردود الإنفعال العكسية الشرطية تجاهها. ولكن يعترض الاسترسال فى الحديث عن الإنفعال سؤال هو:

ما هو الحالة النفسية التى تميز فرد عن فرد فى قبول فكرة معينة واعتناقها ومحاولة إخراجها سلوكا ملموسا بالنسبة للآخرين؟

(١) د/ عبد المنعم الحفى موسوعة علم النفس ج١ ص مكتبة مدبولى ١٩٧٨ م

الإجابة عند علماء النفس - أنها الدفعة الفطرية، ويعرفونها هكذا "الدفعة الفطرية" استعداد فطري نفسى، يسمح لصاحبه باكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضوعات أيسر مما يستجيب لأنواع أخرى، كما يتيح له معاناة أنفعال معين، تجاه هذه الموضوعات المعينة وأن يشرع في سلسلة من الانفعالات تتوقف عند هدف معين، وتفرز سلوكه المفضل إلى الهدف المفضل^(١)

في هذا النص يتضح أن الاستعداد الفطري يكسب صاحبه مميزات معينة مثل:

مميزات الذاتية المنفصلة

- ١ - يتميز بأن لديه استعدادا فطريا نفسيا.
- ٢ - اكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضوعات.
- ٣ - معاناة انفعال معين تجاه موضوع معين.
- ٤ - إحداث سلسلة من الأفعال تتوقف عند هدف معين.
- ٥ - سلوك مختار إلى هدف مختار.

ومن خلال هذه العناصر تبرز فكرة الذات المنفصلة بوزا يكشف عن ماهيتها ويحدد هويتها ويفرق بينها وبين الذات الخاملة، وتحدد معالمها كما يلي:

أولا: الاستعداد الفطري:

وهو الخاصية المركوزة في النفس البشرية والتي تجعلها تتواءم وتتفاعل مع أهداف معينة، ومن هذا يتضح أن النفس البشرية لديها الاستعداد للإنفعال وهذا الاستعداد يسمى الدفعة الفطرية ولكن يعترض هذه القاعدة سؤال مهم.

إذا كان الاستعداد للإنفعال دافعة فطرية فهل يتساوى الناس في الاستجابة لكل الانفعالات؟ والجواب أن الناس ينفعلون - كدافعة فطرية - ولكنهم يختلفون في انفعالهم

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧

ويبقى لكل منهم اختياره الخاص ولكن الله تعالى خلق فيه - أى الإنسان فهم المعنى والانفعال له، أو الإنفعال عليه، أو الإنفعال منه، ويحدد كل ذلك مدى استجابته لكل موضوع من الموضوعات المعروضة عليه ويبرز هذه الخاصية عند الإنسان قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾^(١)

فالناس متساوون في الاستعداد للإنفعال مختلفون في الاستجابة لهذا الانفعال أو لغيره تبعاً لاختلافهم في اختيار الهدف من ناحية القبول أو الرفض، فالآية الكريمة توضح أن الدافعة الفطرية موجودة لدى كل الناس وهى الإستجابة للخير أو الشر.

ولكن يختلفون في الاختيار بين الفجور والتقوى، وعلى هذا يكون حسابهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثانياً: معاناة الانفعال

ومعاناة الانفعال من أبرز سمات الذاتية المنفعلة، وهو جوهر حياتها وهو ما يقابل الإستكانة في الذات الخاملة، ومعاناة الانفعال في الذاتية المنفعلة، هو ما يدفع الإنسان إلى خارج نفسه، والتلاشى في نطاق الهدف العام، وهذا يفسر لنا سلوك صحابة رسول الله ﷺ حين كانوا يتركون ديارهم وأموالهم وحياتهم الرغيدة، ويقبلون على الموت في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، فهذا هدف سام لا تصل إليه النفوس الذليلة، والأمال الكليلة: والإنفعال إلى خارج النفس يمثل الرقى الإنسانى بأسى معانيه والحياة داخل النفس دون معاناة الانفعالات العامة تعتبر موتاً مع استمرار الحياة بمعناه الحيوانى ولذلك يقول الشاعر فى الذين لا يشعرون بالآم أوطانهم:

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

(١) من سورة الشمس الآيتان ٧ - ٨

وهذا المعنى الذي قصده الشاعر، هو السمة الغالبة للذين يعيشون في داخل أنفسهم ولا يشعرون آلام ومعاناة الآخرين، ولذلك يريحون أنفسهم من معاناة الانفعال ولكنهم يقتلون في نفس الوقت، لأن معاناة الانفعال وإن كانت تسبب عننا لرغبات النفس الأنية إلا أنها تحييها وتجلب لها الخلود، وتحليها بأرقى الصفات التي تجعل الإنسان إنساناً.

ثالثاً: إنفعال معين تجاه موضوع معين:

هذا هو الاختيار بين الانفعالات وبين الموضوعات وبرغم إتفاق الناس جميعاً في الانفعال، إلا أن اختيار الهدف يتوقف عليه اختيار الانفعال فالذين اختاروا الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ اختاروا الانفعال بالإيمان واختاروا التفكير لعقولهم، والتجافي عن راحتهم ورغدهم، واختاروا حرارة الإيمان المتفجرة في أعماقهم والتي جعلتهم لا يرتاحون ولا يهنأون بشئ في الدنيا وصوبت أبصارهم إلى الآخرة دفعة واحدة، فضربوا المثل في الجهاد، وإعمار الأرض، وتحقيق الخلافة، ورغبوا من كل ذلك متعة روحية وترويحوية أخروية، وهذا الهدف لا ينسجم في نسق النفوس الضعيفة لأننا نجد في زماننا هذا بعض من ينتسبون إلى الدعوة الإسلامية ويجاهدون فيها، ولكنهم ما إن ينتهوا من إلقاء درس أو محاضرة إلا ويبحون عن مقابلها المادى، والذي يترجم إلى مطعومات ومببلوسات لهم ولأسرهم، وبعد ذلك يتصورون أنهم يسرون على درب الأوائل الكرام، وما أوسع بينهما^(١). غير أن هؤلاء المنتسبين إلى الدعوة لا يعرفون معنى انتقال الإنسان إلى خارج ذاته والتغلب على دونية النفس وسكونها.

والذين اختاروا الانفعال بالكفر - معارضة الدعوة - اختاروا القلق لعقولهم، واللفح لقلوبهم، والبأس لأهدافهم، ومع ذلك كانوا يسعون إليها لتحقيقها، إذن فمع وجود الانفعال واختلاف الموضوع المنفعل به والمتجه إليه يبقى الهدف وراء كل انفعال.

(١) البين - الوصل - المعجم الوسيط ج ١ والمعنى بعد المسافة بين الفريقين.

رابعاً: تسلسل الأفعال وإتجاهها إلى هدف معين:

التفوق في الحياة ليس وليد اللحظة، ولا هو ابنا شرعيا للمفاجأة، هذا من ناحية علم النفس البشرية، وسلوك الإنسان العادى يتجه إلى ذلك، فالهدف يثير في النفس انفعالا، وهذا الانفعال يثير في خارج النفس أفعالا تتوالى فرادى. وهى موحدة المنبع والإتجاه حتى والإتجاه حتى تصل إلى هدفها أو تركز إلى غايتها ومن هنا فالنفس السوية أو الذات المنفعلة ليست هى التى تنتظر المعجزات بالرسول والأنبياء عليهم السلام، ولكن الذات المنفعلة هى الذات المستجيبة التى تعمل فى اطار الخلافة ؛ وبقوة التمكين.

خامساً: سلوك مختار إلى الهدف مختار:

عند الذاتية المنفعلة الغاية لا تبرر الوسيلة: لأن من طبيعة النفس البشرية أن لها سلوك مختار لأهداف مختارة: وطالما أن الهدف يحدد نوعية السلوك: فإننا لو أخذنا الأوائل فى الإسلام مثلالهذه القاعدة: فإننا نخرج بنتيجة عظيمة وهى أن سموالهدف يؤدي إلى طهارة الفعل، وأن الهدف إن كان ساميا والفعل لا يناسبه: كان هذا الفرق مخصوما من الإيمان ومحسوبا على مدعيه، ولذلك فطهارة الهدف وسيلة لتقويم سلوك من يتجه إليه، وما عرفت الأمة الإسلامية هذا البون الشاسع بين هدفها ووسيلتها فى الوصول إليه، إلا فى عصور الهزائم وضيق العزة؛ وسيطرة العدو، فإذا نظرت بعمق إلى الذات الإسلامية المعاصرة، وجدت أن جهادها أمانى، وأن أفعالها متعسكرة فى داخلها؛ وأهدفها لا شئ خارجا عن ذاتها ولذاتها.

ومما سبق تتحدد خواص الذاتية المنفعلة ؛ لكن أصدق النماذج لها عبر كل العصور صحابة رسول الله ﷺ ؛ وأصدق ما حكى عنهم جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وستعرض لهذه النماذج من الذاتية المنفعلة على الصفحات التالية.

أضواء على نماذج منفعلة

القرآن الكريم:

يلقى القرآن الكريم أضواء ساطعة على ذاتية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: فيظهر ما طوى في ثنايا النفس؛ ويترجم بعد ذلك سلوكا طاهرا وأفعالا عزيزة، وهم رضوان الله تعالى عليهم مصابيح الهدى في ليل البشرية المبهيم.

والقرآن الكريم لا يقص على الأجيال المتتابة من الأمة الإسلامية جوانب عظيمة الأولين، لكي تكون مادة للتسلية وسببا للفخر الجاهلي: بل يقص عليهم ذلك لتكون لهم العبرة والأسوة الحسنة.

وإن نظرنا إلى ذاتية الصحابة من خلال على النفس الإسلامي. فإننا سنكتشف أنهم ضربوا أروع الأمثلة في تجسيد النفس السوية أو بمعنى أكثر وضوحا (النفس القرآنية) أي أن مقاييس القرآن الكريم للنفس البشرية انطبقت عليهم. وفي كثير من الأحيان جاء ذكرهم في القرآن الكريم كمثل عليا للنفس السوية: الراضية والمرضية على السواء.

وسوف نتناول هنا بعض النماذج التي تلقى أضواء على ذاتيتهم الفاعلة رضوان الله تعالى عليهم لكي نجسد المعاني ونحولها إلى مبان وإلى أشياء ملموسة يصطدم بها من له حديد البصر ومطموس البصيرة؛ ويسير على هديها من كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

النموذج الأول - الوجل

الوجل صورة من صور الإنفعال، وهو من خواص الذاتية المنفعلة ومن أبرز سماتها. وهو حركة إضطراب تعثرى الوجدان مصحوبة بنوع من القلق الإيجابي - القلق الذي لا يدفع للعمل فحسب بل يدفع للتجديد فيه.

والوجل عند الصحابة كان خروجاً عن الذات وتلاشى في مراد المحبوب المرهوب سبحانه وتعالى، ووجلهم منه مع حبه له ومدحه لهم، يجعلنا نقف متفكرين في أحوالهم خائفين على أنفسنا من سوء المصير، لأننا بأقل الأعمال التي تدل على الطاعة نبوء أنفسنا منازل المقربين.

وتشرب أعناقنا إلى عالم الشهود. وتطمح نفوسنا إلى الخلود. مع أننا بمقاييس الأوائل. نخطئ بصدد أنفسنا.

وترتكس أحياناً بهواناً وشغفنا: ولكن البحث في ذاتيتهم رضوان الله عليهم الفاعلة. ربما ينقذنا مما نحن فيه من غرور.

ولننظر معاً قوله تعالى عن الأوائل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١) (١).

تستطيع أن تجعل الآية الأولى حالاً للآية الثانية. وكذلك الآية الثانية حالاً للآية الأولى. إذا استطعت فكاكا من رسوم ابن مالك وإحاطة ابن عقيل، والمعنى على الأول - أنهم وهم في مسارعتهم للخير قلوبهم وجلة من أي عمل طيب يعلمونه خشية أن يكون خالف المراد بمقاييس الحق سبحانه وتعالى، وإن وافق المراد بمقاييسهم الخاص، والمعنى على الثاني - أن هؤلاء الذين يفعلون الخير وقلوبهم وجلة، وإنما يفعلون ذلك وهك يسارعون في الخيرات فهذه شهادة لهم بقبول أعمالهم وجودتها.

وسوف نتأتى هنا ونستردد ببعض آراء السادة المفسرين حول هاتين الآيتين.

- الأمام ابن كثير:

يقول: - "أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في شرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والإحتياط، وقد روى الإمام أحمد

(١) من سورة المؤمنون. الآيتان ٦٠. ٦١

عن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت: "يارسول الله الذين يوتون ما أتوا وقلوبهم وجلة". الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزوجل.

قال: رسول الله ﷺ: "لا يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم وبتصدق وهو يخاف الله عزوجل"^(١).

- الأستاذ/ سيد قطب:

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله تعالى عليه. ويحس آلاءه فى كل نفس وفى كل نبضة. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته. إلى جانب آلاء الله تعالى: كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله تعالى وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله تعالى فى كل شئ من حوله، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقي الله تعالى وهو مقصر فى حقه، لم يوفه حق عبادة، وطاعة، ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرا.

تلك اليقظة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم. والتى يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره فى القلوب، ليست أمرا فوق الطاقة. وليست تكييفا فوق الاستطاعة، انما هى الحساسية الناشئة من الشعور بالله تعالى والاتصال به، ومراقبته فى السر والعلن، وهى فى حدود الطاقة الإنسانية، حين يشرق فيها ذلك النور الوضئ"^(٢).

لونظرت إلى التفسيرين السابقين لألقيت فى فى كل منها نورا يضيئ لك جانبا من جوانب الذاتية المنفعلة بالوجل، فالإمام ابن كثير يعلل للوجل بقوله - "لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء" ودلل على ذلك بحديث السيدة عائشة رضوان الله تعالى عليهما: ولكن الأستاذ/ سيد قطب يتخذ طريقا مغايرا، فهو يشرح إمكانية هذا الشعور بالوجل وأن كل إنسان يمكنه إذا أراد أن يصل إليه، وانه ليس هدفا خاليا أو فرضيا عبثيا،

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن الكريم ج٣ ص ٢٤٨ ط دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ م.

(٢) الأستاذ/ سيد قطب. فى ظلال القرآن ج٤ ص ٢٤٧٢. ٢٤٧٣ ط دار الشروق ١٩٨٧ م.

يقول إن هذه الحالة - "ليست تكليفا فوق الإستطاعة. إنما هي الحساسية من الشعور بالله تعالى والإتصال به".

وفي النهاية لابد من التركيز على أن الوجل انفعال لا غنى عنه للذاتية المنفعلة ولا يمكن لها أن تنفعل من غير وجل أو توجل من غير انفعال، تلك هي القضية الأولى التي يجب أن تهتم بها مدراسنا ومعاهدنا الإسلامية في تربية النشئ، توجيه الشبيبة، ويمكن أن يتحول ذلك إلى مقياس نفسى يستفيد به العالم والمتعلم على السواء فليس في الدنيا شئ يساوى عند المؤمن - الوصول لهذه الوجلة والرجفة الإيمانية، حين تعاین نفسه جلال الله تعالى المبسوط فوق كل شئ.

النموذج الثانى - التضحية

في كثير من المجتمعات الإسلامية الآن يصعب على بعض الأفراد التضحية بأى شئ في سبيل إخوانه من المسلمين، لأنه بتفوق في ذاتية خاملة، يصعب على البعض الآخر التضحية بإخراج زكاة ماله، بجانب هؤلاء وأولئك هناك من يخرج زكاته ويتصدق بكثير من ماله من غير أن يكون عليه فرض زكاة، ولكن هؤلاء النقر قليل. غير أن فكرة التضحية بالذات وبكل ما تحمل في جنباتها من آمال وأحلام ليست واردة في أغلب الأحيان إن لم تكن مستحيلة الآن بين قوم رضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها. وسندس هنا نموذجا للتضحية (الخروج) حبا لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قال تعالى حكاية عن بعض صحابة رسول الله ص: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْجَدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (١١) .^(١)

(١) من سورة التوبة/ ٩٢

هذه الآية تتحدث عن مجموعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين شخصت أبصارهم إلى المثل العليا في الإسلام وإلى هدف الأمة الكبيرة حتى نسوا حياتهم الدنيوية. وأقبلوا على الموت قتلا - الشهادة - بفرح وغبطة، أصابهم الحزن العميق الصادق - بشهادة السماء - حين لم تقبل تضحياتهم وردوا عن الموت. هؤلاء الناس أحدث الإيمان في قلوبهم تحولا خطيرا في نسق المشاعر الإنسانية لأنهم - والحالة كذلك - كان من الضروري أن يعانون من انفعال الخوف. ويتغلبون عليه بحرارة العاطفة الإنسانية. غير أن الذي حدث هو أنهم انفعلوا بالحب لله تعالى ولرسوله ﷺ حتى غاب عنهم انفعال الخوف بكل ما يحمل من قلق واضطراب.

- الإمام ابن كثير:

يرى الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية أن هؤلاء النفر من الصحابة لم يعانون من ألم الخوف ولكنهم عانوا من عاطفة الحب فيقول. "وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه. فقالوا يارسول الله احملنا. فقال لهم. "والله لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد. ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته وصحبة رسوله. أنزل عذرهم في كتاب"^(١).

أعرض الإمام ابن كثير عن هذه الفكرة أنهم حزنوا من أجل ترك الجهاد. ووصل إلى الانفعال الأساسي. وهو انفعال الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ. فقال - «فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتاب»

(١) الامام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٨١

وهو بكلماته هذه يركز على الحقيقة الكبرى أن هؤلاء النفر من الصحابة تركوا ذواتهم وتلاشوا في مراد الله ورسوله ﷺ .

الذوات الخاملة:

ولكن نميز الذات الفاعلة لابد منشرح موقف الذات الخاملة. وهم الذين بالخوالف. وقال الله تعالى فيهم: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُونَ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

هؤلاء هم الذين دخلوا إلى ذواتهم ولم يخرجوا منها نظروا إلى حياتهم الخاصة وإلى حياة أسرهم كيف يأكلون وكيف يشربون وأى شئ يلبسون. ثم سألوا أنفسهم وهو في كوة في النفس مظلمة، من أجل أى شئ يضحون؟!

هؤلاء كانوا من المسلمين الذين يصلون خلف رسول الله ﷺ ويعلمون تضحياته في سبيل الله تعالى. ويعلمون تضحيات الصحابه رضوان الله عليهم، ومع ذلك لم يضحوا. لماذا؟ لأن ذواتهم كانت خاملة باردة لم تذق حرارة الإيمان في يوم من الأيام، وهذه النتيجة تقودنا إلى نتيجة أخطر. وهى:

أن الإسلام والإيمان من غير برهان من التضحية على صدقهما لا ينفعان، ولو كان لهم نفع مستقل عن البرهان، لكان الأولى بهذا النفع بعض الذين صاحبوا رسول الله ﷺ خلقه... ومع وضوح هذه الحقيقة انتشرت في الأمة الإسلامية مقولة من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.

وهذه المقولة إن صحت عن رسول الله ﷺ لابد لها من تأويل ينسجم مع حقائق القرآن الكريم وواقعيات التاريخ الإسلامى، أما التعميم لهذه المقولة - من غير تأويل - من

(١) من سورة التوبة/ ٩٣

قبل العجزة والقاعدين أمر مجهد للغاية - لأن المسلم من المفترض أن يكون صادقاً مع الله في كل شيء، فإذا لم يستطع - لضعف في ذاته - أن يتفانى في مراد الله تعالى. فيجب عليه ألا يجعل هذا المراد منسجماً مع خياله الضعيف وعزمه الكليل - بمعنى أنه إذا لم يستطع الصعود إلى القمة، فمن سوء الأدب تمنى نزول القمة إليه.

ويرى الأستاذ سيد قطب أن طبيعة الخوالب (الذات الخاملة) طبيعة سدت منافذ الشعور فيها فيقول: "فقد أغلق الله تعالى فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك. بما أرتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب ولا يؤثر الإنسان السلامة اللذيذة أو الراحة البليدة إلا وقد فرغت من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة فوق ما فرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة، وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ، وتطبع على القلوب والعقول.

والحركة دليل الحياة، ومحرك في الوقت ذاته للحياة، ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقت العقل، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة وتدريب الطاقات البشرية على العمل، وتشحذها للتلبية والاستجابة... وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح. يحرمها طلاب الراحة البليدة، والسلامة اللذيذة"^(١).

في الفقرة السابقة يحدد المؤلف صورة الذاتية الخاملة ويعتبرها تلك الذات التي لا تستطيع أن تتخلص من الدوران في تلك اللذة والمتعة الآتية، ولا تستطيع أن تستشرف ما وراء المادة وأن تبذل ما ينفعها في الأجلة وينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾^(٢).

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ج ٣ من ١٩٦٥.

(٢) من سورة الإنسان الآية/٢٧.

ومن هنا فالمسألة لا تقف عند أصحاب هذه الذات عند الخمول والقفود بل تتعدى إلى حب العاجلة بدلا من التضحية من أجل حب الله تعالى ورسوله.

النموذج الثالث - الإيثار

والإيثار هو الذى يحدد علاقة الإنسان الفرد بالآخرة، وهو الذى يدل من قريب على أن الذات التى تؤثر على نفسها هى تلك الذات المنفعلة بالإيمان والفاعلة للإيثار ولقد ضرب صحابة رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى الإيثار وتقديم الغير على أنفسهم، حتى مدحهم الحق سبحانه وتعالى، وسجل لهم هذا الموقف فى القرآن الكريم.

ولا تحسبن الإيثار ضرب من ضروب الكرم، التى يتحلى به بعض الناس، إن الإيثار حالة نفسية تدل دلالة واضحة على أن النفس المؤثرة نفس تشبعت بالإيمان وتشعب الإيمان فى أرجائها، حتى انفكت من قيد الداخل النفسى المظلم، إلى الخارج بكل ما يتطلب من عطاء، حتى غدت هذه النفس تؤثر على نفسها حتى فى حالة الخصاصة وهى الحاجة الشديدة، أو الحاجة الملحة، وإن شأت قل المهلكة.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

هذه الآية تبرئ الأنصار من شبهة أن نفوسهم تغيرت من عطاء المهاجرين، وثبت لهم أنهم يبيعدون عن هذه الشبهة، لأن نفوسهم مؤثرة وليست شحيحة، وأنهم لا ينظرون إلى عطاء المهاجرين بل يؤثرونهم على أنفسهم فى حالة الشدة والحاجة ووهذه هى طبيعة الذات المنفعلة التى آمنت بربها وصدقت بكلماته.

(١) من سورة الحشر - الآية / ٩.

يقول صاحب الميزان: - [والمعنى: يقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة، وهذه الخصيصة أعز وأبلغ من مدحهم من الخصيصة السابقة، فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين، بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة]^(١).

أى أنه ليس مجتمع طمع وأثره، بل مجتمع عطاء وإيثاره.

وعن صورة أخرى من عطاءهم يقول الله تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا»^(٢).

فهذه الآيات تبدي صورة الذات المنفعلة واضحة من غير لبس، إنهم يطعمون الطعام - مع الحاجة إليه - للفقير والمسكين والأسير.

وتتميز معالم هذه الذاتية المنفعلة المؤثرة من وجوه: -

- ١ - إطعام الطعام مع الحاجة الشديدة إليه.
- ٢ - إطعامه للفقير والمسكين والعادة أن تجهز الموائد للأغنياء وأصحاب المناصب، يحدث هذا الآن بين أعداد متزايدة من المسلمين.
- ٣ - إطعام الأسير المشترك مع وجود العاطفة الدينية، ولكن تلاشت في هدف الإسلام الأعلى.
- ٤ - أنهم مع هذا العطاء الممدوح من الحق سبحانه وتعالى تجدهم أصحاب شفافية وخوف ووجل من الله تعالى، لأنهم لا يعملون على وجه الدقة هل تصادف أفعالهم رضا. أم أنها تقع في منطقة بعيدة عن الرضا منحرفة عن المراد.

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن ج ١٩ ص ٢٠٦ ط مؤسسة الأعلی - بيروت ١٩٧٤.

(٢) من سورة الإنسان - الآيات من ٨ إلى ١٠.

وهذه النقطة الأخيرة تفتح بابا كبيرا في طبيعة الإيمان المقبول فهؤلاء مع عطاءهم المخلص والمستخلص من كل الرياء والمنفعة والذي يصادف رضا الله تعالى ومدحة يخافون "يوما عبوسا قمطيرا".

وبين المسلمين الآن من لا يعطى حتى فرض الزكاة كاملا ومن يؤثر نفسه بكل خير وكأن الحياة لم تخلق إلا له وحده، ومع ذلك يزرف دموعها في بعض المناسبات الدينية، ويحدث الناس عن رؤى وحالات تدل على كثرة الوجد وشدة القبول.

إذن لابد من بحث علمى دينى يعاود تقييم إيمان المتأخرين على ضوء هذا الصرح الشامخ الطاهر من إيمان المتقدمين، أما أن يخاف سيدنا أبوبكر من مكر الله تعالى وله قدم في الجنة، وبعضنا لا يخاف من مكر الله تعالى وله أقدام في جهنم، فذلك هو أعجب الإيمان.

يرى الشيخ عبدالكريم الخطيب - أن (من صفات هؤلاء الأبرار أنهم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة، فالطعام الذى عليه قوام الحياة وملاكها، لا يؤثرون انفسهم به، بل يجعلون لمن يعوزهم هذا الطعام نصيبا منه، ولو كانوا انفسهم في أشد الحاجة إليه. وهذا القول من الأبرار ليس بلسان المقال، يواجهون به من أطمعوههم فإنهم لو فعلوا لكان ذلك من باب المن والأذى، الذى يحبط الأعمال، وانعدت عليه نياتهم)^(١).

وهذه الفكرة - فكرة لسان الحال تعتبر استنتاجا طيبا للمفسر، لأنها داخله ضمن انفعالية هذه الذوات الكريمة، وسمة أساسية لها.

- الأستاذ سيد قطب:

يتحدث صاحب الظلال عن انفعالية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بقوله:
(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)
وهى - أى الآيات تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا في إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه.

(١) الشيخ عبدالكريم الخطيب. التفسير القرآنى للقرآن ج ٢٩ ص ١٣٦٣. ١٣٦٤ ط دار الفكر العربى.

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: أنها تحب الطعام الذى تعظمه للضعاف المجارح على اختلاف أنواعهم: إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحاويع. وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويع، ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف، فلا تظل فى هذه الصورة البدائية. المباشرة، إلا الذى يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب، وحيوية العاطفة، والرغبة فى الخير ابتغاء وجه الله تعالى والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة.

وإن الإسلام عقيدة قلوب، ومنهج تربية لهذه القلوب، والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من أخواتهفتى بشطرى التربية التى يقصد إليها هذا الدين... ومن ثم كان هذا التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم.

ومن النقاط المهمة التى أثارها المؤلف - رحمة الله تعالى - فيما يتعلق بانفعالية ذوات الصحابة - حساسية القلوب وحيوية العاطفة، والإيمان الصحيح لا يقوم فى القلوب مثمرا إلا إذا تشبع بالحساسية القلبية، والحيوية العاطفية، وخرجت منه حرارة الإيمان تترجم أقوالا وأفعالا أما الإيمان بمعنى التصديق فقط. فهو وإن قبل عند البعض إلا أنه لا ينشئ مجدا الأمة، ولا يشيد صرحا لدين.

النموذج الرابع - التفكير

والتفكير: هو الحالة الذهنية المتعاملة عند الذات المنفعلة بكل ذات لا تفكر فى ذات الله تعالى وصفاته كما فعل أهل الكلام بعد عصر الأوائل، ولكنها تفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، إنها لا تفكر فى المحسوسات والملموسات ولكنه تفكر فى دقتها، وتسبيح بحمد خالقها، إنه تفكر الذات المنفعلة، وهذا الفكر لا يجلب للذات الاستعلاء بمعرفة المقدمات والنتائج كما يفعل أصحاب الفكر العقيم، ولكنه فكر يزيد النفس خشوعا وخضوعا، ويأخذ بيدها إلى أعماق الإيمان البعيدة إنه فكر منتج، إنه فكر يتبعه ذكر.

ويقول الله تعالى فى أصحاب الذات المتفكرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦١﴾﴾.

يقول الإمام محمد عبده: وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجوده فكر
فأما علماء الهيئة فإنهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل. وأما شائر الناس فحسبهم
هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة، وما فيها من الحسن والروعة. وكل عقل يتمكن من
الإستفادة من النظر فى هذه الآيات. والإستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته.

ويقول الشيخ رشيد رضا: [قد يتفكر المرء فى عجائب السموات والأرض وأسرار ما فيهما
من الإلتقان والإبداع والمنافع الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة، والنعم السابغة
والقدر التامة. وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذى خلق ذلك فى أبداع نظام.
إن الفكر وحده وإن كان مفيدا، لا تكون فائدته إلا بالفكر. فيا طوبى لمن جمع بين
الأميرين واستمتع بهاتين اللذتين] (٢)

وفى التفسير الوسيط: إن فى خلق السموات والأرض وما فيه من الإبداع والإحكام
والحكم والمنافع، وفى اختلاف الليل والنهار، لعلامات واضحات لأصحاب العقول على
وجود رب لهذا الكون. واحد عظيم. وأدلة شاهدات له بكل كمال، وتنزهه عن كل نقص.
وأولوا الأبواب - هؤلاء - هم الذين يتذكرون الله تعالى فى كل حال، بعد أن أثرت آياته فى
نفوسهم، وهدت إلى معرفته وجعلتهم يجدون التفكر فى خلق السموات ليزدادوا معرفة
بخالقها، وإيماننا وثقا بمبدعها. وخشية من التقصير فى واجبات مديرتها (٣).

(١) من سورة آل عمران الإيتان ١٩٠، ١٩١

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا تفسير المنارج ٤ ص ٢٤٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.

(٣) التفسير الوسيط. إعداد لجنة من علماء الأزهر الشريف ج ٤ ص ٢٢٩ طالهيئة لشئون المطابع الأميرية
طبعة ثانية ١٩٧٣ م.

يلاحظ على التفاسير السابقة أنها تشرح الآيتين على أنهما جمل إنشائية لوصف حال من يفعل هكذا [وقد أجاد أصحاب التفاسير في ذلك وربطوا - مبدعين - الفكر بالذكر، وبينوا طريقة الإنفعال بالفكر. غير أنني أرى أن الآيتين السابقتين تحملان معنى الخبر، وأن ذلك كان حال بعض صحابة رسول الله ص، الذين كانوا ينظرون إلى الكون على أنه كتاب الهداية الثاني لهم.

وكانت حرارة الإيمان تدفعهم إلى رؤية قدرة الصانع في كل صنعة، ليست رؤية حسية، ولكنها رؤية شعورية تدفع صاحبها إلى الذكر الدائم وفي القرآن الكريم والسنة الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة: أن ما جاء في الآيتين خبرا وليس إنشاء.

ويرى الإمام ابن كثير: أن ذلك من باب الخبر فيقول: [وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وشرعه وقدره وآياته فقال: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١﴾].

ومدح عباده المؤمنين « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ». قائلين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار » - أي ما خلقت هذا الشئ عبثا^(٢)

فهو يرى أن هذا إخبار عن حالة المؤمنين أثناء نزول القرآن وهم الصحابة رضوان الله عليهم، ويؤخذ ذلك من قوله: (ومدح عباده المؤمنين).

ويركز صاحب الظلال على انفعال الذوات المؤمنة بالتفكير فيقول: [وأولوا الأبواب - أولوا الإدراك الصحيح - يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله تعالى الكونية، ولا يقيمون

(١) من سورة يوسف. الآيتان ١٠٥، ١٠٦

(٢) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٣٩ دار المعرفة ببيروت.

الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله تعالى بقلوبهم قياما وعودا وعلى جنوبهم. فتتفتح بصائرهم وتشرف مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله تعالى إياه، وتدرك غاية وعلّة نشأته، وقوام فطرته، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى، نواميس هذا الوجود...

ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار... لو فتحنا له بصائر وإدراكاتنا، لوتلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف^(١) وخمود التكرار لارتشعت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لأبد من يد تنسق وراء ما فيه من نظام لأبد من عقل يدبر...

والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا^(٢).
فى الفقرات السابقة يحاول المؤلف -رحمه الله تعالى - رسم الخط النفسى لهذه الذوات المنفعلات. وهذه الفقرات نهى هذا التصوير لجانب من سلوك الذاتية المنفعلة فى القرآن الكريم.

(١) الإلف - التمرد.

(٢) الأستاذ/ سيد قطب. فى ظلال القرآن ج١ صلى الله عليه وسلم ٥٤٤. ط دار الشروق.

الفصل الثانى

الجانب العلمى لانفعال الذات

قبل ان نقدم الجانب العلمى - السلوك النفسى المترجم - عند الأوائى، نذكر بأننا قدما فى الفصل السابق^(١) نبذة عن الذاتية المنفعلة، ولكن فى جانب واحد من الانفعال، هو جانب التضحية بالنفس إنفعالا بالذاتية الفاعلة قبل ان يظهر الإسلام وتكتمل أركان الإيمان وقدمت الذاتية المنفعلة هناك كوعاء لتأثير الذاتية، ولكنها تقدم هنا كشخصية نفسية مستقلة شاخصه. لذلك لزم التنبيه.

للداتية المنفعلة شخوصها فى حركة الدعوة الإسلامية قديما وحديثا، ولها أبعادها ومعالمها، وسنحاول أن نترسم ذلك عند الأوائى فقد كان انفعالهم هادرا وشخوصهم بارزة وهم الذين آمنوا فى فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء الإسلام، إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون وهم على طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضيئ دروب الدعوة، تلهم الرشد للدعاة، وهم عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان^(٢).

وسوف نتناول بعض جوانب الذاتية المنفعلة التى توضح هويتها النفسية وتشير إلى ماهيتها الإيمانية وهذه بعض الجوانب نوردها كما يلى:

(١) الذاتية الفاعلة: بحث نشر للمؤلف فى حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا عام ١٩٩٠م.

وجاء فقرة الذاتية المنفعلة فى ص ٦٢٠

(٢) د/ محمد محمد أبو زيد. حولية كلية أصول الدين بطنطا ص ٦٢٠

جوانب إيجابية للذاتية المنضلة

الجانب الأول:

وتحمل الشدائد في الدعوة إلى الله تعالى هولون من الأختبارات اللازمة لتمحيص الإيمان، ثم الدلالة عليه بعد ذلك، ثم الإشارة إلى صدقه في النهاية، ولعل القاسم المشترك بين صحابة رسول الله ﷺ، هو تحملهم جميعاً الشدائد والمعاناة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، لقد بين القرآن الكريم أن قول الإنسان إني مؤمن: دعوى، يدخل الإنسان بعدها في مرحلة الفتنة والاختبار، فقال تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(١).

إذن الفتنة في الدين، سنة ثابتة من سنن الحق سبحانه وتعالى. وهي تمحص الأواثل من معتنقى الأديان السماوية، ومحصت كذلك المؤمنين من أتباع سيدنا محمد ﷺ. غير أن الجدير بالبحث هنا هو تلك الحالة النفسية التي تعقب فترة تحمل الشدة وهي الحالة التي تدفع صاحبها إلى الإيمان.

تلك هي حالة الانفعال بالإيمان، أو حرارة الإيمان التي تنصهر فيها المعاناة والشدائد، وتصهر صاحبها ليخرج ممن الشدة والمعاناة كيانا نفسياً آخر. ومن الذين انفعولوا بالدعوة الإسلامية، وتحملوا الشدائد والمعاناة في سبيلها الصديق أبو بكر - رضى الله عنه - وسوف نورد هنا بعض النماذج من تحمله الشدائد رضى الله عنه.

١ - الصديق أبو بكر - رضى الله تعالى عنه

(أ) أُلح على رسول الله ﷺ في إظهار دعوته، وما زال به حتى قبل ذلك، وذهبا ومعهما جماعة من المسلمين إلى البيت الحرام وقام سيدنا أبو بكر خطيباً بين الناس - أول خطيب

(١) من سورة العنكبوت. الآيات ١ - ٣.

دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ. وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا، ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين. ويحرقها لوجهه، ونزل على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين. عن أبى بكر وحملت بنو تميم أبى بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته.

فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبى بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله؟

فسموا منه بألسنتهم وعزلوه (ثم قاموا وقالوا لأمه. أم الخير، أنظرى أن تطعيمة شيئا أو تسقيه إياه وكلما حلت به ألحت عليه وجعل يقول. ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ماى علم بصاحبك. فقال: أذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها هنج. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبى بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبى بكر ولا محمد بن عبد الله. وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى أبنتك. قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبى بكر صريعا دنفا (مريضا لازمه المرض). فدنت أم جميل وأعلنت بالصباح وقالت: والله، إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت هذه أمك تسمع.

قال: فلا شئ عليك منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو؟

قالت: في دار ابن الأرقم.

قال: فإن لله على أن لا أذيق طعاما ولا أشرب شرابا، أو أتى رسول الله ﷺ . فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، به يتكئ عليها، حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ فقبله، - وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا مانال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وانت مبارك فأدعها إلى الله وادع الله لها - عسى الله أن يستنقذها بك من النار - قال - فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت^(١).

في هذا النص تبدوا عناصر الانفعال الإيماني واضحة، وسوف نتحدث عنها بشئ من الإيجاز. وهي مبسوفة في النص هكذا.

- فما فعل رسول الله ﷺ؟

- لله على أن أذوق طعاما ولا شرابا أو أتى رسول الله ﷺ .

- فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله.

- وأكب عليه المسلمين.

- فأدعها إلى الله وادع الله لها.

تحليل النص:

يقوم هذا التحليل على المرتكز النفسي أساسا، لذلك فهو يعالج النص من خلال الظروف النفسية المحيطة بالحادثة، ويبرز ما فيه من انفعالات^(٢) إيجابية، وسوف نتعد عن السرد التاريخي، أو الحدثي للنص، ونلتزم بمناقشة إيجابياته الانفعالية فقط.

(١) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصحابة ج١ ص ٢٥٩، ٢٦٠ ط دار التراث بيروت

(٢) - «فأكب عليه رسول الله ص».

ماذا فعل رسول الله؟

هذا السؤال قصير كما ترى وقد خلا من الصلاة على رسول الله ﷺ لماذا؟

لأن هذا السؤال كان عنوانا على حياة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بل كان هو الحياة حين عادت، بل كان هو مضمون الحياة والموت بالنسبة له رضى اللع تعالى عنه لأنهم (حملوه فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته).

هذه حقيقة لأمرأ فى أنها رجل بين الحياة والموت، وبنو تميم يكلمون أبأ بكر حتى أجب. فتكلم آخر النهار فقال ما فعل رسول الله؟

بنو تميم يكلمون أبأ بكر ليقفوا على حقيقة حالته، وهو لا يستطيع أن يرد عليهم يوما كاملا، فإذا عادت إليه الروح سأل عما هو أعز من الروح سأل عن رسول ﷺ .

هذه فى معجزة الإيمان، ومظهر حرارة الإيمان، إن الذى يخشى عليه من الموت، حين يعود للحياة، لابد أن يتوجع من الألم الذى غيبه عن الحياة ابتداء، لكن رسول الله ﷺ كان محور حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فكانت حياتهم مظهرا لحبه ص، وترجمته واقعية لما جاء به، لذلك فمحاولة استكفاء حقيقة إيمانهم، هى فى ذات الوقت محاولة لرسم الطريق لنا، إذا أردنا نعيش مثل إيمانهم أو ما يقرب من ذلك، أو إذا أردنا أن نضع مقياسا لإيماننا المتواضع أحيانا، والمتضع فى كثير من الأحيان.

- ما فعل رسول الله ﷺ ؟

حين عادت الحياة إلى سسيدنا أبى بكر محورها فى سؤال ما فعل رسول الله؟ وحين عادت إليه الحياة بزيادة قليلة عن العودة الأولى، جعل هذه الزيادة تحبة لرسول الله ﷺ . فصلى عليه. لم يسأل عن مال، أو ولد، أو عائلة، أو قبيلة، ولم يسأل حتى عن نفسه، هل سيموت أم لا، بل جعل إمتداد حياته عنوانا لحبه لرسول الله ﷺ .

- لله على أن لا أذوق طعاما ولا شراب أو أتى رسول الله ﷺ .

أرأيت إلى رجل غاب عن الدنيا مغشيا عليه أفاق وعاد للحياة أغلق منافذها المرئية على نفسه.

إنه سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه، حين عاد للحياة رفض الطعام والشراب - وهما من ضرورات الحياة - حتى يأتى إلى رسول الله ص، بأى تفسير يكون هذا الموقف، لا يفسر هذا الموقف في ضوء واقعية المسلمين اليوم، ولا يفسر بمعزل عن دائرة الذاتية المنفعلة هذه الذاتية التى انفعلت بالإيمان حتى أصبح لها زادا أولياً لا غنى عنه بغيره، ويستغنى به عن كثير.

هذه الذاتية المنفعلة التى أمتزج فيها الإيمان بالله تعالى وبحبه وحب رسول الله ص، إذا أردنا أن نوضح هذه الفكرة للذهنية الحاضرة، فإننا نقول:

إن كثيرا من الذين يمارسون الدعوة يفرقون بين معطيات الإيمان وواجباته، وبين الإنفعال به والعيش فيه، فبعضهم يطلب من الناس ملائكية الفعل والتوجيه، ويصدر - هو نفسه - فى أفعاله وعلاقاته بالآخرين عن قلب قاس ليس عيبه انه لا يرحم، بل خطيئته أنه يسر بالآلام الآخرين، هذه النوعية من الدعاة - المدعين - تبلى سرائرها وينكشف ما فيها من ظلمة حين توزن بفاعلية الأولين، وهذه هو الدرس الذى يجب أن نخرج به ظلمة حين توزن بفاعلية الأولين. وهذا هو الدرس الذى يجب أن نخرج به من دراستنا للذاتية الفاعلة عن السابقين، لقد سبقونا بالإيمان وسابقونا إلى سنامه.

لقد صهرتهم حرارة الإيمان جميعا حتى أصبحوا ذاتا إيمانية واحدة مع تعدد الشخص على صفحة الحياة، فيها هو رسول الله ﷺ يقبل على أبى بكر رضى الله تعالى عنه مقبلا، ويقبل بعده المسلمون.

أنها عودة الحبيب للحبيب، إنه لقاء الأرواح المؤتلفة. إنها أرواح صهرها الإيمان، ووحدها المصير.

- «فأدعها إلى الله وادع الله لها».

وكما ذابت أرواحهم في الإيمان نجدت عواطفهم في الدعوة الإسلامية. فبعد هذا اللقاء المبهج. لهم يغفل سيدنا أبوبكر حق الدعوة عليه، ومردود إيمان الآخرين إليه فطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو أمه إلى الإيمان. وأن يدعو الله تعالى لها. هو بذلك يؤكد إنفعال بالإيمان. حتى أصبح لا يرى في الحياة غيره.

وفي نهاية تحليل هذا الموقف الإيماني. وبيان إنفعالية الذات بالإيمان نرى أن هذا الإيمان هو الحرى بدفع الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ولذلك فالأولون سادوا وقادوا. وإذا حاء في التاريخ عنهم غير ذلك. فهى نزاعات غير حقيقية، سجلها عليهم من لم يعاصروهم ولم يذوقوا مثل إيمانهم يوما ما، وكثير مما كتب عن الأولين فيه ظلم لهم، ويشبه إلى حد كبير وصف الأعشى لحديقة غنا، بعد أن يلمس أشجارها وأعصابها. وربما أصابه الشوك من بعض الزهور، أو شعر بغلطة في بعض الأغصان فعاد يصف ما لمس به بيده، وصورة بعقله بعيدة عن روعة الحقيقة وجمالها الآخاذ.

٢ - آل ياسر - رضى الله تعالى عنهم

ومن الذين تحملوا الشدائد في الدعوة آل ياسر، وقد قدمنا ترجمة لكفاحهم الشدائد في البحث الأول - الذاتية الفاعلة - تحت مضمون: لماذا ضحوا؟

وكانت الإجابة أنهم ضحوا بتأثير ذاتية رسول الله ص، ولكننا هنا سنذكر لمحة عن انفعالهم بالإيمان، ولأنه لا يمكن لباحث في الذاتية المنفعلة أن يمر على ذكراهم دون أن يستنشق عبيرهم ويستضيئ بنورهم، ويأمل أن يكون له مثل إيمانهم. أخرج ابن مسعود

عن عثمان رضى الله تعالى عنه: [بينما أنا امشى مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام، فقال أبوعمار]:

يارسول: ألدهر هكذا؟ فقال: صبرا آل ياسر. اللهم اغفر لآل ياسر. وقد فعلت^(١).

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار. وهم يؤذون في الله تعالى، فقال لهم: صبرا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة وزاد بعض الرواة. عبد الله بن ياسر ممن كانوا يعذبون. وقال راو آخر. وطعن أبو جهل سمية في قلبها فماتت ومات ياسر في العذاب، ورمى عبد الله فسقط^(٢).

ويأتى رسول الله ﷺ .

هذه صورة من بعض المراجع عن انفعالية هؤلاء الأوائل بالإيمان. إن العذاب يشتد على آل ياسر. ويأتى رسول الله ص، ويسأله ياسر: «ألدهر كله؟» أى هل سنعذب الدهركله، فيرد عليه بأن يطلب منه مزيدا من الصبر على مزيد من العذاب، هذه الظروف القاسية العنيفة تضع إيمان ياسر وأسرته في كفة وعلى الكفة الأخرى من الميزان يقبع الموت متسر بلا بالأحزان، إنه إيمان يوزن بالموت بعد مؤلمة من العذاب فما الذى يدفع للأمام في طريق الإيمان؟ وما هو الشئ الذى يخفف عنهم آلامهم، ويقوى آمالهم؟ - وواقعيا لا أمل لهم في الحياة - ولكن طموحهم يتجه للأخرة. إن الذى يفعل بهم هذا من داخلهم هو انفعالية الإيمان، لأنهم ذوات منفعة تنبعث حرارة الإيمان من داخلهم، فتسطع نورا وقوة وتحملا. وتستطيع أن توحد هنا بين تحمل أبى بكر للعذاب وتحمل آل يار والجميع مشرق الوجه بنور الله تعالى والأمل في عفوه وفي أريحية القبول.

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى ج٣ ص ١١٧ والنص منقول من مستند الإمام أحمد ج٢ ص ٢ والإصابة ج٨

ص ١٤٤

(٢) الإصابة ج٣ ص ٦٤٧.

٣ - عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه

وعلى نفس الطريق - طريق التجاوب والانفعال بالإيمان طريق الإشتغال بومضات الفرقان. - سارسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، كان الأوائل لا يكتفون بالإيمان برسالة الإسلام، المتمثلة فى أركانه. وفى محددات الإيمان بل كانوا يشعرون بما فى رسالة الإسلام من من «دعوية» محرّكة ومتحرّكة، كان هذا الشعور يتحول لديهم إلى قوة دافعة، وهمية رافعة. كانوا يشعرون أن الدعوة إلى الإسلام هى فحوى رسالته، لأنها رسال عالمية، لا تحقق هدفها بإيمان بعض القبائل، أو بعض البلاد، أو بعض القارات فى نهاية المطاف. وتحول التبليغ عندهم إلى حلم، وأمل، وعمل، وتضحية، وفداء. وها هو عمر بن الخطاب يلقي بنفسه بين جحافل المشركين ويخبرهم أنه أسلم، وهو يعلم أنه بهذا يدمر أفئدتهم، ويسفه أحلامهم، ويبدد آمالهم. ويعلم أيضا أنه سيضرب ويعذب من الكثرة المتربصة حول البيت الحرام. وينقل ابن اسحاق عن عمر -رضى الله تعالى عنه- لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه. قال: وأى قريش أنقل للحديث؟.

فقبل له جميل بن معمر الجمعى فغدا عليه. قال عبدالله وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت -حتى جاءه فقال له أعملت يا جميل: إنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ﷺ؟ قال. فوالله ما راجعه حتى قام يجرداءه واتبعته أنا، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته. يا معشر قريش. وهم فى أنديتهم حول الكعبة -ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال يقول عمر من خلفه: كذب. ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله. وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال وطلح - أى أعياء - فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدالكم، فأحلف بالله، أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا^(١).

(١) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصحابة ج١ ص ٢٦٥، ٢٦٦ ورواه ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق عن ابن عمر ج١ ص ٢٣٧ ط المكتبة التوفيقية بمصر.

تحليل النص:

في النص السابق من الفاعليات الإيمانية، أو انفعالات الإيمان، ما يلي:

- ١ - قال: أي قريش أنقل للحديث؟
- ٢ - يقول من خلفه: كذب:
- ٣ - ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله الا الله، وأن محمد رسول الله.
- ٤ - فما برح يقاتلون حتى قامت الشمس على رؤوسهم.
- ٥ - وهو يقول افعلوا ما بدالكم
- ٦ - فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتوها لنا.

أي قريش أنقل للحديث:

إنه سؤال ينم عن كثير من الإستعداد للبذل والعطاء، لقد كانت قريش هي جزيرة العرب، ومحاولة إعلامها بالرسالة تمثل إيذاها بالحرب، ولكن حرارة الإيمان، ما فتئت تدفع ابن الخطاب للبحث عن أقوى وسيلة لإعلامها، لقد كان جميل بن معمر الجمحي يمثل أقوى أجهزة الإعلام في قريش، ويستطيع أن يحيطها علماً بأى خبر في لحظات ومن يقرأ النص يدرك ذلك من قول عبدالله بن عمر.

فوالله ما راجعه حتى قام يجررداءه - غير أن البحث هنا لا يعتمد لا يعتمد على قوة ما سيترتب على نشر هذا الخبر، بعد أن يقع على أذان قريش مثل الصاعقة فيجعلها مقسمة المشاعريين ذهول المصعوق وجفو المطرود.

يقول من خلفه: كذب: استخدم سيدنا عمر بن الخطاب، جميل بن معمر لإعلام المشركين بإسلام عمر، ولكنه إعلامها أنه صباً، فكان يقول من خلفه كذب، لأنه يريد أن تصل الرسالة الإعلامية كما أرادها قوية صادقة واضحة.

ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

هذه هى الرسالة الصادقة الصاعقة التى أرادها الله أن تصل إلى قريش وكان يعلم أنها ستفجر ثورة فى النفوس الموحشة بالكفر، المتوحشة للقتل.

فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم: هذه هى النتيجة التى توقعها وانتظرها ليجعل منها عنوانا على صدق إيمانه، وفاعلية إسلامه. إنه ذاهب إلى هذا العذاب برؤية واضحة وعزم صادق. وكأن عذابه دليل صدق الرسالة التى أرادها أن تصل. فهى رسالة مدموغة بدمه، ومصداق عليها بعناية.

وللذين يعملون فى حقل الدعوة فائدة من هذه الحادثة: أن الحديث عن روحانيات الإسلام وإشاعات الإيمان من غير دليل من الصدق والزهد، حديث مردود على قائلة، ولكن عمر بن الخطاب أراد أن يبلغ الرسالة، ويبلغ فى ذات الوقت الخلفيات الإيمانية لهذه الرسالة، وكان له ما أراد. وتحقق له ما تمنى.

وهو يقول: افعلوا ما بدالكم:

لقد وصل معهم إلى نهاية التحدى وبين لهم أن الحياة نفسها لا تساوى شيئا بجانب الإيمان وأبرز البرهنة عليه بدلائل اليقين.

- فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. إنه هنا يسكنه المستقبل ويستكشفه، ليعلمهم بمصير الصراع بين الكفر والإيمان بعد أن نقل إليهم الإعلام بالرسالة عن طريق جميل بن معمر. والنظر للمستقبل بهذا الاستكشاف اليقيني، واليقيني المستكشف يعد لازمة من لوازم الإيمان، وخصلة مبدئية للأوائل. فالإيمان بطبيعته تسليم بغيب غير مقدور على رؤيته، ورؤيته غيب والاستعداد للتعامل معه، قبل أن تأتى بكثير. فالأول غيب الآخرة، والثانى غيب الدنيا الذى يعتبر مرثيا غند الأفاذ من البشر، وكان من أجل صحابة رسول الله ﷺ - من هؤلاء:

٤ - عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه

عن محمد بن أبراهيم التميمي قال: (لما أسلم عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا وقال: أتربغ عن ملة آبائك إلى «دين محدث؟ والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه)^(١).

هذا هو دين النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه يربط، ويوثق ربطه عمه الحكم، ومع ذلك لا تلين له قناة. إنها فاعلية الإيمان التي استشعرها الحكم، ففك وثاقه، ولعل وثاق الحكم هذا كان رمزا لمقاومة الجاهلية، ولكنه كان رمزا لضعفها في مواجهة الإيمان.

الجانب الثانى: التضحية بالنفس والنفيس

١ - صهيب بن سنان - رضى الله تعالى عنه:

من بدايات التاريخ الإنسانى، والمال يلعب دورا كبيرا في حياة الإنسان حتى غدا شقيق الروح وسامقة الآمال. وتحدث عنه العزيز الحكيم في القرآن الكريم حديثا يبين خطره ويظهر أمره. فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ (٤٦) ﴿٣١﴾.

وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿٣٢﴾.

في هاتين الايتين يبدو المال قسيم الولد في العاطفة الإنسانية. ولقد تعرض صهيب بن سنان - رضى الله تعالى عنه - لموقف غريب عند هجرته من غير مال، أو يبقى في مكانه مع ماله.

(١) ابن سعد: الطبقات ج ٣ ص ٣٧

(٢) من سورة الكهف الآية/ ٤٣

(٣) من سورة التغابن الآية/ ١٧

وقسوة هذا الموقف أن المال لم يجعل في مواجهة الإيمان، وإلا لكان صهيب قد اختار الإيمان من غير تردد، ولكنه جعل في مواجهة رسول الله - ﷺ - في المدينة. وهذا أمر لم يدرك على الفور فإنه يدرك بعد حين، ولكن صهيبا بإنفعاله بالإيمان رأى أن تأخره عن رسول الله - ﷺ - لا يجوز مهما كان الثمين.

والعبرة في هذا الموقف أن إيمان صهيب لو لم يكن حيا حارا متدفقا متجاوبا منفعلا وفاعلا في ذات الوقت، لاختار صهيب البقاء مع المال حتى تحين فرصة مناسبة للخروج من مكة ومن جو الشرك فيها. قبل الفتح العظيم.

وتُردد كتب التاريخ صدى هجرة صهيب بأريج يملأ عقبه مساحة كبيرة عرضها المكان وطولها الزمان كله، فيقول صهيب عن نفسه: [فخرجت ولحقني منهم ناس بعدما سرت، يريدون ليردونى فقلت لهم إن أعطيتكم أواقى من ذهب أتخلوا سبيلى وتوفون لى.

ففعّلوا فتبعتمهم إلى مكة فقلت احفروا اسكفة الباب^(١) فإنه بها أواقى، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحليتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله - ﷺ - ببقاء قبل أن يتحول منها. فلما رآنى قال: يا أبا يحيى ربح البيع، فقلت يارسول الله ما سبقنى إليك أحد، وما أخبرك جبريل عليه السلام]^(٢).

هذه الرواية تظهر أن هذه الرواية تظهر أن صهيبا افتدى فاعليته بالمال من أول لحظة من غير مقاومة، غير أن ابن سعد في طبقاته يورد نصا آخر يوضح أن ذلك تم بعد مقاومة فيقول في ج ١ ﷺ ١٦٣.

(إن صهيبا - رضى الله تعالى عنه - أقبل مهاجرا نحو النبى - ﷺ - فتبعه نفر من قريش مشركون فنزل فانتشل^(٣). كنانته، فقال: قد علمتم يا معشر قريش أنى أركم رجلا

(١) الخشبة التي تحت الباب. المعجم الوسيط ج ١.

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٣ وأبونعيم في الحلب ج ١ ص ٥٢ وابن سعد في الطبقات ج ١ ص ١٦٢.

(٣) فانتشل كنانته. أخرج ما فيها. المعجم الوسيط ج ٢

بسهم، وأيم الله لا تضعون إلى حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي، ثم أضربكم بسيفى ما بقى في يدي منه، ثم شأنكم بعد ذلك. وإن شئتم دلتكم على مالى بمكة وتخلوا سبيلي.

قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك، فدلهم، فأنزل الله على رسوله القرآن.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رُءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) حتى فرغ من الآية، فلما رأى النبي ﷺ صهيباً قال: ربح البيع يا أبا يحيى وقرأ عليه القرآن^(٢).

وهذه الرواية تظهر روح التحدى والمقاومة عند الأوائل.

لقد جعل صهيب هجرته منتهى أمله وأوقف حياته وبقاءه في الحياة عليهما، وهدد القرشيين بأنه سيقتل منهم ما استطاع كيف استطاع، ليخبرهم أنه لا مناص من الهجرة، وأفهمه أنه بعد استنفاد جهده ضدهم ربما قتلوه بعد أن يقتل منهم ما تصل إليه يده، ثم بعد ذلك عرض عليهم المال.

وقد أراد بذلك أن يدعوهم إلى الله تعالى بفاعليته وانفعاله بالإيمان. إنهم لن يؤمنوا على الفور وأمام صهيب. ولكنهم حين يرجعون إلى بيوتهم وأهلهم وحين يخلون بأنفسهم سيسألون أنفسهم هذا السؤال؟ ما الذى جعل صهيب يضحى بنفسه لوقبلنا القتال ويضحى بماله حين قبلنا المال؟

لا شك أنهم سيصلون إلى الإجابة من خلال صمود صهيب وعلوه عليهم بل على الدنيا جميعاً، وربما كانت هذه الأسئلة التى تبحث عن إجابات شافية ثم لا تفتأ أن تحصل عليها من خلال فاعليات الأوائل وانفعالهم بالإيمان، وربما كان هذا هو الذى عجل بانضمام الكثير من أعداء الإسلام إلى ركابه والانضواء تحت لوائه، إنها مواقف نبعت من الإيمان والإنفعال به عند فريق ولكنها فجرت الإيمان في قلوب فريق آخر.

(١) من سورة البقرة الآية ٢٠٧

(٢) جاء هذا النص أيضاً في كنز العمال في ج ١ ص ٢٣٧

والنفس التى عرفت الفاعلية عند الأوائل والإنفاعلية بالإيمان لا تكاد تركز إلى فكرة أن صهيبياء عرض المال على القوم فى البداية وهذه النفس تجد راحة إلى فكرة أن صهيبياء عرض المال على القوم فى البداية وهذه النفس تجد راحة فى غير ذلك من الأخبار التى تنسجم مع الخط النورانى لهذه الذات المنفصلة.

وقد تحدث صهيبياء رضى الله تعالى عنهم هجرته فقال: [لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ص، قالت لى قريش: يا صهيبياء. قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبدا. فقلت لهم رأيتم أن دفعت إليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا: نعم فدفعت إليهم مالى، فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: ربح صهيبياء ربح صهيبياء - مرتين^(١)]

هذا الخبر هو الذى ينسجم مع فاعلية صهيبياء رضى الله تعالى عنه، لقد كانت عين المشركين دائما على ماله، وعلى ثورته التى كونها من التجارة بينهم، والآن وقد جمع ثورته وهم بالذهاب إلى عدوهم فى يثرب، قد أصبح للثروة بعد آخر، أنها ستتحول إلى حركة دافعة فى يدى المسلمين ولذلك فرغبة القرشيين فى ثروة صهيبياء مفهومة وعللها معلومة وقف صهيبياء يفكر كيف يضحى بثورته دفعة واحدة وبقرار منه، وليس بتنازلية، ولكن فاعليته دفعته إلى الاختيار الأقرب للذات المنفصلة بالإيمان، التى لا تجد ما يعدله فى الحياة، غير أن الرواية الأخيرة للخير التى يعرض فيها القرشيون على صهيبياء ترك ماله والذهاب إلى يثرب بدونه، وهذا الخير إذا أضفنا إليه تهديده لهم بالقتل، وتحولهم عنه إلى ماله، وهذه المعلومات مجمعة هى التى تحدد الذات المنفصلة عند صهيبياء، ذات تشعبت بالبطولة، وارتوت بالإيثار.

(١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٢٤٧ ط دار المعرفة، ببيروت واخرجه ابن سعد فى طبقاته أيضا فى ج٣ ص ١٦٢ ط دار المعرفة ببيروت.

٢ - طلحة بن عبيد الله - رضى الله تعالى عنه

وفي غزوة أحد، حيث انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ وأحاط به الأعداء من كل جانب. ورأى ذلك طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه، فتقدم حتى حال بين رسول الله ﷺ وبين المشركين وظل يضربهم بسيفه وهم يضربونه بسيوفهم، ويصيبونهم ويصيبونه. ومع كثرة إصابتهم له لم يشعر بألم، ولم يستشعر الموت وفقدان الحياة.

ويقول سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه: [ذلك يوم لطلحة. كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلا يقاتل في سبيل الله دونه وأراه قال: حمية. قال: فقلت كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجل من قومي أحب إلي، وبينى وبين المشتركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشى خطفا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه، فأنتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته وشيح في وجهه، وقد دخل في وجنته^(١) حلقتان من حلق المغفرة^(٢).

قال رسول الله ﷺ: عليكما صاحبكما يريد طلحة، وقد نرف فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذلك من وجهه.

فقال: أقسم عليك بحقى لما تركنى فتركته فكره تناولها بيده فيؤدى رسول الله ﷺ، فأزم عليها بقية^(٣).

فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع فقال: أقسمت عليك بحقى لما تركنى، قال: ففعل مثلما فعل في المرة الأولى فوقع ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه من أحسن الناس هثما، فاصلحنا من شأن

(١) وجنته: ما ارتفع من الخدين.

(٢) المغفرة: حلقات تحى من يرقد بها.

(٣) أزم: عض بالفم كله. المعجم الوسيط ج١

رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار - حفرة في الأرض - فإذا به بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه. فأصلحنا من شأنه^(١).

بضع وسبعون ضربة، بعدد شعب الإيمان على أصح الرويات، بالها من مقابلة عجيبة ومفارقة غريبة، كل شعبة من الإيمان كان لها زكاة من الفاعلية عندهم، إنه إيمان فاعل وأفعال مؤمنة. يقول صاحب رجال حول الرسول عن هذا الخبر: [وابصر «طلحة» جانب المعركة الذى يقف به رسول الله صلى الله تعالى وسلم فألقاه قد صارهدفا لقوى الوثنية والشرك، فسارع نحو الرسول... وراح -رضى الله تعالى عنه- يجتاز طريقا ما أطوله على قصره... طريقا تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة... وعشرات من الرماح المجنونة؟

ورأى رسول الله ﷺ من بعيد يسيل من وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجنونته، وقطع طريق الهول في قفزة أو قفزتين. وأمام الرسول وجد ما يخشاه... سيوف المشركين تلهث نحوه وتحيط به تريد أن تناله بسوء. ووقف طلحة كالجيش اللجب يضرب بسيفه الهتار يميناً وشمالاً... ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيداً عن الحفرة التى زلت فيها قدمه.

كان يساند الرسول بيسراه ويصدره، متأخراً إلى مكان آمن، بينما يمينه -بارك الله يمينه - تضرب بالسيف وتقاتل المشركين. الذين أحاطوا بالرسول -صلى الله تبارك وتعالى وسلم - وملأوا دائرة القتال مثل الجراد...

وفي جميع المشاهدات والغزوات. كان طلحة -رضى الله تعالى عنه في مقدمة الصفوف، وابتغى وجه الله تعالى، ويفتدى راية رسول الله صلى الله تعالى وسلم^(٢).

(١) ابن كثير: البداية ص ٢٩ وأبو نعيم في الحلية فصل المعرفة وعند ابن سعد الطبقات ج٣ ص ٢٩٨ وابن عساکر في كنز العمال ج٥ ص ٢٧٤ وأخرج مثله البخارى ومسلم.

(٢) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول ﷺ ص ٣٧٦، ٣٧٧ ط دار ثابث ١٩٩٠م.

وفي النص السابق تتضح فعاليات الإيمان وإنفعالات الذاتية المنفعلة بالنسبة للصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله رضی الله تعالى عنه. ويمكن ترجمة هذه الإنفعالات الإيجابية إلى ما يلي:

(أ) إقباله بعد إدبار الآخرين.

(ب) حمله رسول الله ﷺ والدفاع عنه.

(ج) تجاهله لألامه المبرحة، وتلاشى نفسه في الدفاع عن رسول الله ﷺ.

- بالنسبة لإقباله بعد إدبار الآخرين: فإن هذا يعد مدخلا لذاتيته المنفعلة، فالإنسان يقبل ويقتحم وينسى الموت في اللحظات التي يشعر فيها بقرب النصر، أما وقد بدت علامات الهزيمة تشخص للعيان، فإن الإقبال هنا يكون لهدف آخر، وهذا الهدف يتجه ناحية العاطفة النفسية، تلك العاطفة الدينية التي ملكت على الأوائل أنفسهم وأفئدتهم ومشاعرهم. إنه يقبل والسيوف في تزاممها الحاقدا لا تترك موضعا جديدا لسيف، أورمح، إنه يقبل والموت أوضح لديه من الحياة، إنه خرج من ذاته وابتعد عنها، وأصبح لا يرى إلا ذات رول الله ﷺ. فهي الجديدة بالحياة ومن أجلها يضحي بالحياة، والإنسان حين يصل إلى هذه الدرجة من الإنفعال العاطفي. والعاطفة المنفعلة فإنه يكون قد تكونت لديه ذات الإيمان.

وحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: والدفاع عنه كان جزءا من هذا السلوك الإيجابي السلوك الذي يوحد النفوس ويجمع الذوات، لقد جعلته الذات المنفعلة يقوم بعملين كبيرين في لحظة واحدة. فهو ينقذ البطل العظيم من حفرة زلت قدمه فيها وفي ذات يوم يدافع عنه ليكشف لدارس علم النفس الحديث عن تشعب السلوك الناشئ عن إدارة واحدة، لكنها إرادة منفعلة وفاعلة في ذات الوقت.

- وتجاهله لآلامه: هو القمة السامقة لهذه الذات المنفعلة، إن الإنسان يضعف أمام مكوناته كإنسان، ومن هذه المكونات الإحساس بالألم. بل هو أبرزها على الإطلاق، لقد كان كثير من الصحابة لديهم الاستعداد للدفاع عن رسول الله - ﷺ - وتناسى الآمهم. أو ذوبان الآمهم في آلامه، وهذا لطلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه.

إن الإنسان يتألم من لا شئ وهو متفوق في ذاته، بينما لا يشعر نفس هذا الإنسان بأى ألم مهما بلغت قسوته إذا قفز خارجا من الذات، أو خارجا عنها، بضع وسبعون طعنة وهو يؤدى مهمته في الدفاع عن رسول الله ﷺ، هذه البطولة النادرة هي التي جعلت سيدنا أبو بكر رضى الله عنه. يقول عن يوم أحد إنه كان يوم لطلحة بن عبيد الله رضى الله عنه.

وفي النهاية يجب الإشارة إلى ما قدم قطرة من محيط بالنسبة لفاعليات الأوائل أو ايجابياتهم في تقبل الإيمان، غير أن ما قدم في هذا البحث يعتبر نماذج يمكن السير على منوالها، أو الير في اتجاهها، إنها بداية دراسة لذاتيتهم المنفعلة. وليست استيعابا لهذه الذاتية التي تفاعلت مع الإيمان، حتى أصبح التمييز بينهما أمرا عسيرا، وكما كان الإيمان عنوانا على الأوائل أصبح التمييز بينهما أمرا عسيرا، وكما كان الإيمان عنوانا على الأوائل أصبح الأوائل بعد تفاعلهم بالإيمان عنوانا عليه وداعيا له وهذه ميزة القيادة والريادة للتابعين في كل مكان وعبر الزمان.

الفصل الثالث:

ما تحتاجه الأمة الإسلامية

تعقيب أول:

إن من يطالع هذا لايبحث يتبادرإلى ذهنه سؤال: ما الفائدة التي ستعود على الدعوة الإسلامية من دراسة ذاتية الأوائل المنفصلة؟! وقبل الإجابة يجب إعادة التذكير بأن الإنفعال النفسى فى هذه الدراسة لا يقصد منه الإنفعال بمعناه العادى ولكن يقصد منه تفاعل النفس الإيجابى مع فكرة ما. وعلى ضوء ما تقدم تكون فائدة الدراسة هى الوقوف على إيجابيات الإيمان، ووضع أطروأسس السلوك الإيمانى، وتميزه عن غيره من أنواع السلوك ويمكن طرح هذه القضية على هيئة سؤال هكذا - ما هو القاسم المشترك بين الأوائل وبيننا؟ والإجابة: إله واحد، ونبى خاتم، وكتاب محكم، وسنة ما صح منها يهدى إلى الحق والخير والرشاد، وهذا عن القاسم المشترك الأعظم. أما حين نمعن النظرإلى تعامل الأوائل مع حقائق الإيمان السابقة، وتعامل الخلف الذين خلفوا من بعدهم فإننا ندهش للفرق الكبير، فسيدينا أبو بكررضى الله تعالى عنه على سبيل المثال آمن برسول الله - ﷺ - من البداية، وصدقه حين كذبه الناس، وكان ثانى اثنين إذ هما فى الغار، وانفق حل ماله فى سبيل الله سبحانه وتعالى، وكان من العشرة المبشرين بالجنة، ومات رسول الله ﷺ وهو عنه راض.

جاء ذكره فى القرآن الكريم طيبا، عند بعض التفاسير، وتولى الخلافة فسير جيش أسامة، وقاتل أهل الردة، وجعل للإسلام وصوله وشوكة، ولكن شعاره كان دائما. (إنى لا

آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي هاتين في الجنة). هذا المعيار الإيماني حين تضعه على كثير من الذوات اللاحقة لا تجد له انطباقا، وإن انطبق من ناحية، فإنه يتعري من عديد من المناحي، ولزيادة الأمر وضوحا نقول:

رب رجل أجهد نفسه في خصلة واحدة من خصال سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، فإنه يتجاهل باقي الخصال التي لا يقدر عليها، ولكنه يحير الباحث حين يراه قانعا بخصلة واحدة غير مكتملة، ومع ذلك له يقين بأنه: من أهل الجنة لا محالة ويستشعر رضي الله في كل عمل يقوم به - خلال مرآته المعتمة - ولو كان في كثير مما يقوم به ظلم بين الناس، عند هذا الحد من المقارنة يتحتم على الباحثين في علوم الدعوة الإسلامية النظر بحذر إلى سلوك المعاصرين من المسلمين، ومحاولة ردهم إلى التفاعل الإيجابي مع الإيمان وصرفهم عن الإيمان السلبي الذي ينبع من داخل النفس وينعكس عليها مرة أخرى. فلا ترى هذه النفس إلا ما أرادت أن تراه، ولا تبصر إلا ما صورتها لنفسها في عالم الخيال.

وكثير من يرون أنه عدم الالتزام الشديد بشريعة الله تعالى والتغاضي عن كثير من محدداتها. يرون أنهم من الذين يرثون الفردوس. وهذه الرؤية في أحسن الظنون خيال وليست إيمان، وهذا يقودنا إلى التأكيد على أن الدعوة يجب أن تبدأ من القرآن الكريم والسنة الشريفة الصحيحة مرة أخرى، أي يجب أن ندخل الإيمان إلى الذات من خارجها من مصدره الصحيح من المبدأ، ولا تترك كل مدعو يضع لنفسه إيمانا سقيما إذا قيس بإيمان الأوائل تحول إلى هواء وهراء.

تعقيب ثان:

يجب النظر إلى تحمل الأوائل الشدائد والآلام في سبيل الدعوة الإسلامية على أنه تحمل هادف، وليس حبا في التعذيب واستعدادا للآلام كما تنادى بذلك بعض النحل مثل البوذية، أو كما يمجد الألم عند المسيحيين.

إن تحمل الألم عند الأوائل كان لههدف رئيسى يتفرع عنه كثير من الأهداف: أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى، أى أن تسود شريعة الله تعالى فى أرض الله بحانه وتعالى، وهذا أظهر التفاعل الإيمانى فى سلوكهم.

إنهم علموا أن الإيمان ثورة لتغير الحياة، إنها ثورة لنشر الحق والخير والجمال. والجمال هنا معناه إزالة كل قبيحيشوه وجهة الحياة، حتى تشرف الأرض بنور ربها، بنور الرسالة الخاتمة، الرسالة الكبيرة التى جاءت لإصلاح عالم كبير.

من أجل هذه المعانى الحية فى ذاتها، والشاخصة فى ذات الأوائل كانت النظرة للدين مختلفة عما هى عليه الآن. فالمظاهر الإيمانية غير إيجابية على الإطلاق، وليست هادفة. فما هو الهدف من وراء التشدد فى تصنيف ما يحل من الطعامواللباس؟

برغم عدم الإلتزان بالحد الشرعى عند من يدعون السلفية، وما هو الهدف من تعظيم شعيرة الاعتكاف بينقوم يتسولون طعامهم من أعدائهم؟ وما هو الهدف من جعل من يترك بعض النك كافرا؟.

والعدو ينتقص أطراف الأمة الإسلامية من كل جانب وعلى الجانب الآخر نجد من يجعلون العبادة هدفاً ويتقطعون لها وهم من أمة رهبانيتها الجهاد. أتراهم يسنون شريعة جديدة، أو يجدون رهبانية ابتدعها قوم لم يحافظوا عليها؟ والذين يرحلون من بلد إلى بلد لنصب الخيام فى ذكرى موت بعض المسلمين أو ذكرى مولدهم ما هو الهدف من سعيهم هذا...؟

إنهم يقولون: لإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتقرب إلى أوليائه. نعم قد يكون هذا سعياً محموداً ولكنه غير هادف على الإطلاق. فما الذى سيعود على الإسلام، وعلى الأمة الإسلامية فى وضعها الراهن من هذا الهدف السبيل؟

إن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أناس يبيعون أنفسهم وأموالهم لله تعالى ولنصرة دينه، لكي ينقذوها من عثرتها. ويقىموها من كبوتها.

إن الحاجة العملية تدعو إلى المبادرة للتخلق بأخلاق الأوائل حتى تقوم للإسلام قوة تشرفنا. وترضى الله عنا. والسير على دربهم هو الأمل المنقذ وهو الأمل الهادى، وهو الأمل الوحيد.

الباب الثالث

الذاتية الغافلة

«تمهيد»

هذا هو البحث الثالث عن الذاتية الإنسانية "وهو يدور حول الذاتية الغافلة، وقد قدمت ذلك بتوفيق الله تعالى على صفحات هذه المجلة الغراء بحثين: الأول عن الذاتية الفاعلة، والثانى: عن الذاتية المنفعلة.

وهذا هو البحث الثالث عن الذاتية الغافلة. لأن الغفلة من المشكلات الكبرى التى تواجه الدعوة، حيث يتعرضون لدعوة الجماهير. والغفلة التى تسيطر على الساحة الإسلامية الآن نوعان. غفلة فى الدنيا - أى عن واجب المسلمين فى الدنيا - غفلة عن الخلافة، وغفلة بالدنيا. رعى التعلق بالدنيا ومتاعها حتى ينسى المسلم حياته الأخرى، وعلى المسلمين واجبى العبادة والخلافة. والغفلة عن واجب منهما تؤدى إلى الغفلة عن الآخر، ولكن الغفلة حين تشتد على إنسان وتملك عليه حواسه، تصبح مرضا خاصا من الأمراض التى يجب أن تقاومها الدعوة، لأن دعوة الغافل من سردراسة ذاتية سراب وهراء وادعاء وارتزاق.

أما الدعوة التى يراد بها وجه الله تعالى فهى دعوة مستبصرة. تدرس الذات وتحدد نوعها، قبل أن تدعوها إلى ربها، وإمامنا زمعلمنا هو رسول الله صلى عليه وسلم. ويظهر ذلك فى اختلاف أسلوبه ووسيلته فى الدعوة من إنسان لآخر، وعلى هذا جاءت دراسة الذاتية الغافلة.

«الفصل الأول»

رصد القرآن الكريم للغفلة

(أ) الغفلة فى القرآن الكريم: دراسة موضوعية:

جاءت مادة "غفل" أو "الغفلة" فى القرآن الكريم ٣٥ خمس وثلاثون^(١) مرة، منها

إحدى عشر مرة لنفى الغفلة عن الحق - سبحانه وتعالى، وهى كما يلى:-

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة ٧٤)

وهذه الآية تعالج الغفلة عند المدعو بتشخيصها لحالة القلب الإنسانى حين يتمادى فى العناد والعصية. فالمدعو يطلب الآية من الرسول كلاً يذعن للإيمان ولكن قلبه يزداد تحجراً بعد مشاهدة الدليل. وشهادة الواقع، ويتحجر قلب الإنسان حتى يصبح أشد قسوة من الحجارة، ومن هنا لا يفيد الذات الغافلة لإذعان الظاهر للشريعة من تحجر القلب، وجاءت نهاية الآية الكريمة معبرة عن ذلك «وما الله بغافل عما تعملون» ولسوف تعود بإذن الله تعالى إلى هذه الآية عند التعرض لطبيعية الذات الغافلة.

٢ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسُكُمْ وَسُحْرٌ فَأَنْتُمْ كَرِيمٌ تَطَّهَرُوا عَنْهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ لَهُمْ مِثْرٌ كَمَا جَاءَكُمْ مِنْهُ فَسُحْرٌ أَمْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ أَمْ أَنْتُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (سورة البقرة ١٠٢)

(١) محمد فؤاد عبد الباقي. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٠٣ ط دار الحديث ١٩٨٧ م.

بِعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۖ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ (سورة البقرة: ٨٥)

جاءت لفظة غافل في نهاية الآية، إلا أن موضوع الآية يبين موضوع أعراض الغفلة

عند المدعو ويتجلى ذلك في قوله تعالى «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»

أى أن الذات الغافلة تبحث عما يريحها في تكاليف الدين، وتترك ما يسبب لها حرجا،
وتغفل عن أنها ملزمة بجملة التكليف، وهذا الأمر مشاهد الآن بكثرة حتى بين بعض المتدينين.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ (سورة البقرة: ١٤٠).

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا التعبير الكريم يلقي
ضوءا باهرا يكشف المغبوء في ظلمات الذات الغافلة. حيث وصلت لإلى حالة تتصور
معها كتم الشهادة عن عالم الغيب والشهادة.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (سورة البقرة: ١٤٤)

٦ - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ (سورة البقرة ١٤٩)

٧ - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (سورة آل عمران: ٩٩).

الحق سبحانه وتعالى ينفي الغفلة عن نفسه ويثبت أعراضها للمدعويين، ففي هذه الآية

ترى عرض الذات الغافلة في قوله تعالى: "تبغونها عوجا وانتم شهداء" تظهر الآية الكريمة
أن الغفلة لا تكون بسبب الجهل فقط ولكن أحيانا ترتكز على العلم علم الغافل في الأحوال.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

(سورة الأنعام: ١٣٢)

٩ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة هود: ١٢٣).

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيْنِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٩٣).

(سورة النمل: ٩٣).

١١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٢).

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ﴾

(سورة المؤمنون: ١٧)

في الآيات السابقة عدد نتائج مهمة لسير البحث عن الذاتية الغافلة، وسوف نعود إليها بإذن الله تعالى في ثنايا البحث إلا أن النتيجة الهامة للبحثى نهاية الآيات التى يبنى فيها الحق سبحانه وتعالى عن نفسه الغفلة، فى ذات الوقت بنيه على عرض الغفلة عند المدعو. ومن هنا جاء عجز الآية الكريمة مفتاحاً لفهم معناها، وهذا المفتاح هو ما يحتاجه كل دارس لتفسير القرآن الكريم، وهو ما يجتهد إليه البحث هذا الذى نحن بصددده الآن.

مواقف الذاتية البشرية الغافلة من:

سوف نستعرض فيما يلى مواضع ذكر الغفلة فى القرآن الكريم، وهى المواضع التى ستحدد لنا فى النهاية ما هية الذاتية الغافلة وكيفية علاجها، وجعلها ذاتية منفعة فى عمومها. فاعلة فى بعض من أفرادها. وسوف نذكرها بترتيبها فى القرآن الكريم.

١ - العباداة والخلافة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَالدَّيْنِ كَفَرُوا لَوْ تَعْفَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۗ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

(سورة النساء: ١٠٢)

وفي هذه الآية الكريمة يتجلى التكامل العضوى بين مهتمى العباداة والخلافة، وأن محاولة الإهتمام بإحدهما على حساب الأخرى إنما تأتى بالعاقبة البائسة الوخيمة. فهذا هو النبى ص، وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم - خير القرون - يحذرهم الحق بحانه وتعالى من الغفلة التى تأتى من تقديم واجب العباداة - بصلاة جميع الموجودين جماعة - على واجب الخلافة بترك مجموعة للحراسة، لأن كسب أرض جديدة للإسلام لا يقل أهمية عن أداء الصلاة الخسعة الطاهرة القاننة. وإن كان لا يقبل من غيرها، بل يخرج من خيرها، وياليت إخواننا الذين ينظرون إلى مهمة الإنسان فى الأرض، ويرونها العباداة فقط يراجعون مثل هذه الآية - وهو كثير فى كتاب الله تعالى - ويرجعون عن مواقفهم السلبية فى الحياة.

وبحسب منطق هؤلاء كان على النبى ﷺ والصحابه الكرام أن يصلوا جميعا بخشوع، وكان على الله تعالى أن يحرسهم، ولكن الله تعالى بين لهم أن حراستهم واجبة عليهم هم حتى أثناء الصلاة الخاشعة، وأنه يوقفهم حين يؤدون واجب العباداة، والخلافة ولا يكتفون بأحدهم دون الآخر، كما يفعل المسلمون الآن تحت ظلال الهزائم العسكرية والنفسية، أما أيام النصر (فصلى رسول الله ﷺ بطائفة من القوم، وطائفة أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا فى مصاف أصحابهم، ثم

جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا في مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين. فيومئذ أنزل الله في قصر الصلاة تشريعا وأمر المؤمنين بأخذ السلاح^(١).

٢ - الغفلة والأمر الفُرط:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

يحدد الحق سبحانه وتعالى أسباب الغفلة في صدر هذه الآية الكريمة أنها في عدم الانضمام إلى قافلة المؤمنين. وفي التعلق بزينة الحياة الدنيا وطاعة أهل الغفلة لا يثبتون على مبدأ في الحياة بل لا يعرفون الحياة بمبدأ، بل يعرفونها فرطاً، ولا ينبغي أن يظن الإنسان عندما يقرأ هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان في نيته أن يفعل ذلك، والله تعالى قد منعه عن طريق هذا التحذير.

بل الأقرب إلى القبول أن هذه الآية قد أظهرت صفات الفريقين - المتيقظ والغافل - عن طريق هذا الأسلوب البديع في التحذير لأنه يحذر من لا يصدر منه هذا الفعل أبداً. وهذا التحذير بهذا الشكل يوقف المستمع إلى محاولة البحث عن صفات الفارقة بين الطائفتين، ولعل أبرز هذه الصفات عندهما - اليقظة التي تجعل الفريق الأول لا يغفل عن دعاء ربه - بمعنى عبادته وطاعته في أمور الدنيا والآخرة لأن هؤلاء هم الذين أعطونا المثل الأعلى في طاعة الله تعالى. والمثل الأعلى أيضا في عمارة الدنيا والسعى في مناكها -بالغداة والعشى، أى الليل والنهار، والغفلة عند الفريق الآخر الذى جعلته يتبع هواء، ويصبح مفرط الأمر مختل الاتجاه.

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج١ ص ٥٤٨ ط دار المعرفة ١٩٦٩م.

تعقيب:

لم يسند فعل الغفلة إلى الله تعالى - بمعنى أنه أغفل الناس في القرآن الكريم كله إلا في هذه الآية، والحقيقة أن الله تعالى منزّه عن فعل الغفلة للناس، لأنها تبعدهم عن ذكره، ولكن استمد فعل الغافلة بهذا الشكل لأن لله تعالى أنوارا يرسلها للقلوب المستجيبة فنزداد نورا وتعلقا به ويحجبها عن القلوب الغافلة التي لا تنظرها فتزداد غفلة ومن هنا قال تعالى: (أغفلنا) ويصح أن يقال في المعنى: غفل عن خوف المقام. فزاد ذلك إلى الغفلة عن الذكر، أو أغفلنا عنه لأنه لا يستحق أنواره.

وهي في جميع الأحوال نتيجة لتخاذه العيد في البداية وهذا يوضح خطر الغفلة، وضياح أمل الغافلين. «أغفلنا قلبه» من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر بالخذلان، أو وجدناه غافلا عنه، كقوله أحبته، وافحمته، وأبخلته، إذا وجدته كذلك،... أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سنة^(١). «أغفلنا قلبه» فلو ذكروا الله لتركوا كبرياءهم وخففوا من غلوانهم... فهم وأقولهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال. جزاء ما غفلوا عن ذكر الله تعالى....

أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه، وشهواته، فلم يعد في قلبه متسع لله تعالى، والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ويجعلها غاية حياته، لا حرم يغفل عن ذكر الله تعالى، فيزيده الله تعالى غفلة، ويملى له فيما هو فيه. حتى تفلت الأيام من بين يديه ويلقى ما أعده الله تعالى لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم^(٢).

وقبل أن تترك هذا التعقيب حول لفظة "أغفلنا" أحبذ هنا رأى المرحوم الأستاذ سيد قطب لأنه ربط أسباب الغفلة بمسبباتها. وجعلها من الله تعالى لكنها نتيجة لظلم العبد لنفسه ببعده عن ذكر الله وهو - أي الذكر - من أهم العوامل التي تمحو الغفلة عن قلب العبد وتجعله يقظا راشدا، وهو ما ذهبنا إليه في شرح هذه الآية.

(١) الامام الزمخشري تفسير الكشاف ج٢ ص ٤٨٢ ط الحلبي ١٩٧٢م.

(٢) الاستاذ سيد قطب في ظلال القرآن

٣ - قوله تعالى: ﴿يَمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

(سورة الأنعام، ١٣٠، ١٣١)

في الآية الأخيرة تأتي كلمة غافلون بمعنى جاهلون - أى لم تبلغهم الدعوة، والمعنى أن الله تعالى يقول: إننى لا أهلك القرى من غير أن أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات ثم بعد ذلك يتم الهلاك بسبب الغفلة عن هذه الآيات بعد العلم بها.

وعلاقة هذه الآية بالغفلة علاقة عكسية بمعنى أنهم لم يؤخذوا غافلين، بل شهدوا على انفسهم أنهم كانوا كافرين (أى إنما أَعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤخذ أحد بظلمه وهو لم يبلغه الدعوة، ولكن أَعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم) وعلى هذا يكون معنى الغفلة متناسبا متناسبا طرديا في الآية الأولى

- أرسلنا الرسل والآيات وغفلتم عنها - وتناسبا عكسها في الثانية - بعد غفلتكم عن الرسالات أخذناكم وأنتم تحملون مسئولية الرسالة التي جاءت إليكم ولستم على فترة من الرسل. تجهلون الكتاب ولا الإيمان.

4 - الغفلة و التحول الوظيفى للحواس:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَادَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

(سورة الأعراف ١٧٩)

في الجزء الثانى من هذه الوحدة سوف يأتى شرح هذه الآية بالتفصيل إلا أننا سنلقى ضوءا على الغفلة والتحول الوظيفى للحواس، فحواس الإنسان تختلف عن حواس

الحيوان اختلاف تفضيل وخلافه، فحواس الحيوان تعينه على الحياة فقط وفق هدف محدود وأن يكون مسخرا لغيره

أما حواس الإنسان فهي حواس لها وظيفات:

الأولى: للحياة العادية التي يشترك فيها مع الحيوان.

الثانية: معاينة آلاء الله تعالى في كتاب الهداية (الكتب المنزلة) وفي كتاب الكون المفتوح، إن الإنسان مكلف بتتبع جلال الله تعالى في كونه، وجماله في تكوين هذا الكون الفسيح، وحين تقف مهمة الحواس - بسبب الغفلة - عند الأمور الحياتية فقط، وتعرض عن الجانب الآخر الذي يغذى الروح وينمى الإيمان، يكون قد حدث تغير كبير في وظيفة الحواس البشرية، وتحول الإنسان بحواسه المبصرة إلى مرتبة الحيوان المنغلق بحواسه على كيانه. بل انحدرا إلى مرتبة أضل لأنه سيعيش حياة حيوانية لم يؤهل لها أصلا، فإذا كان الحيوان في محاولة دائمة لأستشراف جوانب الجلال والجمال في الكون وتقف بعض حواسه أحيانا دون هذه الغاية، فكيف يساوى بإنسان ترك النظر في كون هوله. وكون هوله للنظر فيه، لاشك أنه سيصبح حينئذ أضل من هذا الحيوان لأن الغفلة طمست حواسه وغيرت وظائفها.

5 - الغفلة والتكذيب بالآخرة والاطمئنان إلى الدنيا والرضا بها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ

عَنْهَا يَكْتُمُونَ ﴿٧﴾ (سورة يونس: ٧)

في هذه الآية الكثير من أغراض الغفلة:

الأول: ضعف الإيمان بالغيب خاصة البعث والآخرة بصفة عامة، لأن الغافل يبدأ غفلته بتجاهل تكاليف الدين الإيمانية والعملية والفرضية، ثم بعد ذلك تنسحب غفلته على اعتقاده فيصبح شعاره وما أظن الساعة قائمة وهذا الشعار حتى موته.

الثانى: الرضا بالدنيا كبديل ملوس لمتاع الآخرة الغيبى البعيد ولو كشف لهم الغيب لعابنوا الحقيقة.

الثالث: الاطمئنان إلى الدنيا وإلى عدم تغييرها وتبديلها إلا أن هذا التغيير من أخص صفات الدنيا وأكثر مكوناتها.

الرابع: وهذه الآية الكريمة تفتح بابا كبيرا فى فهم محددات سلوك الغافل. وتوضح بناته النفسى الدخلى وهى أمور لم تتناول بالدراسات إلى عهد قريب، وعلى علماء الدين تقع مهمة إبراز هذه الدراسات النفسى الإيمانية لأن جل نشاط علماء النفس ينصب على محاولة فهم النفس البشرىة من خلال دراسة سلوك الحيوان وهذا بعيد جدا عن الغاية، ضال فى الوسيلة (أن الذين لا يرجون لقاءنا) لا يتوقعونه أصلا ولا يخطر ببالهم لغفلتهم المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفتن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقاءنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقاءنا الذى يجب أن يخاف، وآثروا القليل الفانى على الكثير الباقى.... وسكنوا فيها سكون من لا يزعج منها، فبنوا شديدا وأملوا بعيدا^(١).

فى السطور السابقة وضع المؤلف - رحمة الله تعالى - يده على خواص سلوك الغافلين فى هذه الآية الكريمة.

6 - الغفلة حتى الموت:

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ (سورة يونس ٩٢).

توضح الآيات السابقة على هذه الآية كيف استمر فرعون فى غفلته لا يرجو لقاء الله تعالى. مطمئنا إلى الدنيا راضيا بها حتى وأدركه الغرق، فحاول التوبه ولكنها لم تقبل، وكتب الخروج لجسده فقط من الماء، وفى هذه الآية يعرض لنا الحق تعالى، هذه النهاية البائسة

(١) الامام الزمخشرى. الكشاف ج٢ ص ٢٢٦.

إلا إنه ينبغي أن هذه الآية مع وضوحها إلا أن الغفلة ستصرف عنها كثيرا من الناس، وكم من حكام مسلمين زاروا المتحف المصرى وشاهدوا بدن فرعون محنطا تمر عليه السنون لا حول ولا طول وعاد هؤلاء الحكام إلى بلادهم وتسربلوا بغفلتهم وانقلبوا على شعوبهم فراعين جبارين.

7 - الغفلة والمؤامرة:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (سورة يوسف ١٣).

يذهب معظم المفسرون إلى أن يعقوب يعقوب عليه السلام لقن أولاده المعذرة التي يقتدون بها، وهى قوله: «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون».

يقول الإمام ابن كثير: «فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عندهم»^(١).

يقول الإمام الزمخشري: "قال ذلك فلقتهم العلة"^(٢).

يقول الأستاذ/ سيد قطب: "ولابد أنهم وجدوا فيها عذرا كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم.. حتى لقتهم أبوهم هذا الجواب"^(٣).

يقول الإمام القرطبي: "وأخذوا ذلك من فيه فتحرموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه"^(٤) وعلى هذا تكون الغفلة هنا على معناها الحقيقي إلا أننى لا أميل إلى رأى علمائنا الأجلاء فى أن يعقوب عليه السلام قد لقن أولاده المعذرة، بل أذهب إلى أنه عليه السلام كان يسد عليهم طريق الغدر، ويفوت عليهم حجتهم لأنه كان يستشعر عن طريق الوحي أو الإلهام أنهم سيحاولون الغدر بأخيمهم مما سيصل بيوسف عليه السلام إلى مهمته الكبيرة

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٤٧

(٢) الكشف ج ٦ ص ٣٠

(٣) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ١٩٧٥

(٤) الإمام القرطبي. الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ص ١٤٨ ط دار إحياء التراث ١٩٨٥ م.

في مصر وهى الدعوة إلى الله تعالى وإنقاذ البشرية من الموت جوعا وهى لم تنزل في بداية الطريق. وهذه إلى حد كبير تشبه خروج آدم عليه السلام من الجنة لأنه خرج للخلافة التى خلق من أجلها وكان الخطأ معلما من معالم طريقه وأولاده الطويل.

وتأسيا على ما سبق تكون غافلون بمعنى متغافلون لأنه كان يعلم أن نية الغدر موجودة ولما قال لهم: «وانى ليحزننى أن تذهبوا به» لم يكن ذلك شوقا ولهفة كما ذهبت سادتنا المفسرون ولكن كان هذا القول على الحقيقة لأن هذا الذهاب لأن هذا الذهاب سيجلب له الحزن: ولكنه لم يكن حزنا لفقد الابن - كما ذهب العلماء أيضا - ولكنه للفراق المختتم بالعودة والجمع بإذن الله سبحانه وتعالى حين صاح «ياأبت هذا تأويل رؤىاي من قبل».

لقد كان ليعقوب كثير من الأحداث عن طريق الوحي، وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام بكثير منها وهو فى الجب، وهذا هو دأب الأنبياء فى استكفاء الغيب.

ويرد قول المفسرين السابق بما يلى:

١ - رؤيا يوسف التى يسجد له فيها الأب والأم والأخوة. والإلقاء فى الجب، بداية الطريق وليس نهايته.

٢ - قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿وَيُتِمَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ ومن يقول بهذا لا يعقل منه من يصدق أن الذئب سىأكل يوسف فى غفلة من إخوته

٣ - قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فهو من البداية يعرف المؤامرة ويعرف أن تغافلهم جزء منها، لأنه يقول لهم إنكم تأخذونه لأمر آخر ولكن تصادف وهجم عليه ذئب فإنكم ستتغافلون عنه حتى يقضى نحبه، لأن الخلاص منه هو هدفكم فى كل الأحوال.

٤ - قوله: ﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ إذن فهو لم يصدق موضوع الذئب بعد قسم أبناؤه على حدوثه، فكيف يتصوره قبل أن يحدث، ويتصور أن الغفلة تؤدى إليه، وسوف أكتفى بهذا القدر مع بقاء كثيرا من الأدلة فى الكتاب العزيز.

8 - الغفلة والطبع على الحواس:

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة النحل ١٠٧).

هذه ذوات إنسانية استمرت الغفلة ورائت على قلوبهم آثار المعاصي، فطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. وهذه الآية توضح ما للغفلة من خطر على الغافلين، وعندما تطالع صدر الآية فإنك تتساءل مانوع الذنوب التي جعلت هؤلاء يستحقون الطبع على القلوب والأسماع والأبصار. ويخبرك الحق سبحانه وتعالى أنها الغفلة. التي جعلتهم لا يستحقون لداع يدعو بينهم إلى الطريق القويم.

9 - العلم الدنيوي لا يفيد في رفع الغفلة:

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (سورة الروح: ٧).

البعد الزمني من الأبعاد التي لا يمكن إغفالها عند التعرض لتفسير القرآن الكريم، وهذه الآية من الآيات التي يلعب التعاقب الزمني في تفسيرها دورا بارزا. لقد أغترت بعض الأمم فيما سبق بما وصلت إليه من العلم الدنيوي. وظنت أنها لا تحتاج إلى توجيه السماء. وكان ذلك بسبب الغفلة التي فصلت بينهم وبين السؤال الخالد: من أين؟ وإلى أين؟

إنهم اغتروا بما عملوا من ظاهر الدنيا. وقد اعترف الحق سبحانه وتعالى لهم بهذا العلم الظاهري ولكنهم غفلوا عن الغاية من كل الوجود، واليوم ترى الغافلين وقد حصل بعضهم على أعلى الدرجات في العلك الدنيوي ولكنه لا يعلم شيئا عن الطريق إلى الله تعالى، إنهم حددوا ورسموا الطرق في أعماق المحيطات والبحار. وحددوا طرقا فوق الكواكب البعيدة عنا بملايين السنين الضوئية، ولكنهم فشلوا في قطع خطوة واحدة على طريق الحق سبحانه وتعالى.

وليس هذا هجوما على العلم الدنيوي - بل هو من أول واجبات الخلافة وهو علم يرضى الله سبحانه وتعالى: ويسخطه تركه - ولكن العلم الدنيوي الظاهري علم بالوجود من غير علة للبداية ولا هدف للنهاية، وهو بهذه الصفة علم مبتور معثور.

لكن العلم الظاهرى -على الحياة - يفيد إذا ارتبط بعلة الحياة والوجود وهو الحق سبحانه وتعالى - عندئذ يصبح على المزارع والطبيب والصانع وكل عمل لظاهر الحياة تراتيل وترانيم قدسية ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ۞ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَمَّ نَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿الواقعة ٦٣، ٦٤﴾ فى الآفة الأولى ﴿ تَحْرُثُونَ ﴾ جهء بشرى لآبء منه لتطوئر الحياة (ظاهرا من الحياة الدنيا)

وفى الآفة الثانية ﴿ نَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴾ فىض إلهى لآبء منه، إننا يجب أن نعش الوجود معللا، ولا نمربه غافلن و(أكثر الناس لفس لهم علم إلا بالدنفا وأكسابها وشئونها وما فىها، فهم حذاق أذكفاء فى تحصفلها، ووجه مكاسبها، وهم غافلون فى أمور الدنيا وما ىنفعهم فى الدار الآخرة. كأن أءهم غفل لا ذهن له ولا فكرة)^(١).

10 - الغفلة بسبب غفاء الرسالة:

قوله تعالى: ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة يس ٦). إن الإنسان من غير رسالات الماء ىعش الحياة غافلا عن وجود الكرفم الذى أوجءه. ولكنه ىعذر لأنه ارتبط بالحفا حتى ضعف فطرته، وأصبع لا ىستطفع استكناه سر وجوده على الأرض إلا برسالات السماء والغفلة فى هذه الآفة بمعنى غفاء الرسالة، لكن الغفلة فى هذه الحالة لفس برئة من كل ما ارتكب فىها بل حجر زاوئته وسنام أمره، ومن ىرء أن ىدرس آثار الغفلة عن الدين فعلىه أن ىدرس أقرب جاهلفة عاشها البشر قبل بعث النبى الخاتم.

11 - الغفلة وءعاء من لا ىستجىب:

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة الأحقاف: ٥)

(١) ابن كئفر. تفسير القرآن العظفم ج٣ ص ٤٢٧.

ومن المصاعب التي تسببها الغفلة ما يعرف بإنعكاس القصد. وهو محاولة الإنسان أن يقنع نفسه بشئ يضره. إن الدعاء سواء بقصد العبادة أو الطلب. لا يكون إلا خي قادر سميع قريب في كل الأمور ومختلف الأحوال، وهذه الصفات لا تتحقق إلا لله.

ولكن البشر بسبب الغفلة عبدوا الملائكة، وعبدوا الأحجار. وتوجهوا إليهم بالدعاء، وهم لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة. بل إن الآية الثانية تخبر أن هذا الدعاء من طرف واحد، يجلب غضب المدعو لا استجابته. ولذلك فخسارة الغافل خسارتان، عدم الإستجابة وعداء المدعو، وخير القرآن الكريم قاطع في عدم استجابة أى أحد من دون الله تعالى إلى يوم القيامة، ومع ذلك فالغفلة تجعل كثيرا من المسلمين عندما تنزل بهم شدة ما يتجهون بالدعاء إلى الصالحين من أمة الإسلام، وبرغم ما في ذلك من عاطفة ملموسة، إلا أنه يجب ترك الدعاء والطلب من غير الله سبحانه وتعالى.

وإننا لا نمنع زيارة قبور الصالحين والدعاء لهم بالمنزلة الكريمة جزاء ما قدموا لديهم، ولأمتهم، إلا أننا ننبه أن الطلب منهم قد يجعل الطالب يخسر طلبه، ولا يكسب إلا عداوة هؤلاء الأخبار.

(ويجوز أن يريد كل من دون الله سبحانه وتعالى من الجن والأنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها)^(١).

وإذا كان الدعاء بمعنى العادة على رأى الإمام الزمخشري فتبقى معنا مشكلة الطلب من غير الله تعالى بالدعاء فهل يستجيب الصالحون والملائكة والجن والجماد لطلب العبد، لا أحد يقول بالاستجابة، أما مشكلة العداء بين الطالب والمطلوب فإنها واقعة في حالة العبادة مظنونة في حالة الدعاء بمعنى الطلب ومع ذلك فتوقير الحق سبحانه وتعالى

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٦

يستوجب ترك دعاء غيره والطلب منه، ومن يفعل ذلك - أى دعاء الغير - يكون قد ولج إلى ظلمات الغفلة، وهوت به الريح فى مكان سحبق.

12 - القرآن الكرىم ىرفع الغفلة عن الكتب السابقة:

قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (سورة الأنعام ١٥٦).

هذه الآية ترفع التعلل بالغفلة عن الكتب السابقة وهى من باب أولى ترفع الغفلة عن هذا الكتاب الكرىم فلا حجة لأحد الآن وبعد الآن أن - يتعلل بالغفلة وعدم الإلمام بشريعة الإسلام.

13 - الاستغراق فى الغفلة والغرق فى اليم:

قوله تعالى: ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف ١٣٦).

أرسل الله لفرعون وقومه كثيرا من الآيات الدالة على صدق نبى الله تعالى موسى عليه السلام، وعلى قوة وقهر الحق سبحانه وتعالى: منها إدخال الحياة فى العصا، إخراج اليد بيضاء من غير سوء - آيات مخيفة ملجنة - الطوفان - الجراد - القمل - الضفادع - الدم - ومع ذلك استكبر القوم واستغفروا فى الغفلة، فكان لابد من إغراقهم. وإلى يومنا هذا ترى أناسا يتنكبون من حطام ويستغرقون فى غفلتهم هذه فيغرقهم الله سبحانه وتعالى فى بحور من الهم والغم والأمراض.

ويضيق عليهم صدورهم فيغرقهم فى لجة الحياة التى شغلوا بها واطمأنوا لها، لقد عالج فرعون وقومه لحظة غرق، ولكن كثيرا من الناس لا يخرجون من غرقهم إلا بالموت، قد يكون هذا الغرق فى الشهوات أو اللذات المباحة أو غير المباحة ولكنه غرق على كل حال، ولا بد للغريق من يد قوية تخرجه من الماء، وسفينة تتجه به إلى الشاطئ الآمن، ويد الله تعالى توحده وسفينته المنقذة شريعته، فهل تتجه إليها.

14 - الغفلة والصرف عن الخير والرشاد:

قوله تعالى: ﴿سَاصِرْفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف ١٤٦).

في الآية السابقة عدة أعراض للغفلة منها:

١ - الصرف عن آيات الله تعالى.

٢ - التكبر في الأرض بغير الحق.

٣ - عدم الاستفادة من رؤية الايات

٤ - عدم السير في طريق الرشد بعد اكتشافه:

٥ - الاتجاه إلى الطريق الخطأ بعد اكتشافه مباشرة.

هذه الأعراض السابقة ترصدها الآية الكريمة كأعراض للغفلة، وهي تحتاج إلى دراسة

متمعمقة - ليس مجالها الآن - وقد أشرنا إليها - هنا - من بعيد.

ويفسر الإمام ابن كثير الصرف بقوله: (أى سأمع فهم الحجيج والأدلة الدالة على

عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين من الناس بغير حق أى كما اسكتبروا بغير حق

أذلهم الله بالجهل)^(١)

يجعل الإمام ابن كثير سبب الصرف هو التكبر، والحقيقة أنه الغفلة بدليل قوله

تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى بسبب أنهم تغافلوا، فالكبر عرض للغفلة

وليس مرضاً مستقلاً كما يرى الإمام الجليل ابن كثير

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٤٧

15 - الفطرة تسقط عذر الغفلة:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

يخبر الحق سبحانه وتعالى: (أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم، أن الله تعالى ربهم ومليكمهم. وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه)^(١). هذه الآية مع تفير الإمام ابن كثير لها توضح أن التوحيد مركوز في فطرة العبد - وكل مولود يولد على الفطرة^(٢) -

من البداية، وتبين أيضا خطورة الغفلة، وكيف أن الله تعالى أغلق على الإنسان باب التعلل بها، ووضع في فطرته ما يجذبه إلى الطريق القويم، وفوت عليه فرصة الاحتجاج بالغفلة، للغفلة تأثير كبير على الإنسان، لأنها الجانب المريح بالنسبة له، فهو يصنع منها كهفا يحتوى به من توفير الحق وتكاليف الشرع ولذلك فالفطرة شاهدة على الإنسان وليست شاهدة له.

16 - مقاومة الغفلة:

قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (سورة الأعراف ٢٠٥)، بنية الحق سبحانه وتعالى نسبة صلى الله عليه ولم - والتنبيه لأمتة أصلا - إلى أن الغفلة من الإنسان جهدا لمقاومتها وإزاحتها عن قلبه، فذكر الله تعالى في النفس يشمل مطلق الذكر في كل وقت، وخاصة

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٦١

(٢) حديث: "ما من مولود لا يولد على الفطرة" الحديث أخرجه أحمد في صحيحه ج٣ ص ٤٣٥ ط المكتب الإسلامى ببيروت جمعه وأخرجه البخارى في شرح.....

في أول النهار وآخره، عند العودة للحياة من النوم، والذهاب له، ومنه ذكر الله تعالى في النفس بمعنى ذكر فضل الله تعالى على الإنسان، وعرض الإنسان نفسه على شريعة الله تعالى، ومنه تذكره سبحانه وتعالى وهو من أجل أنواع الذكر الذي يذهب الغفلة، لأن أشد أنواع الغفلة ضررا أن يغفل الإنسان عن بارئته سبحانه وتعالى.

17 - غفلة الخلق عن عبادة بعضهم البعض:

قوله تعالى: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (سورة يونس ٢٩)، هذا نوع من الصراع ينشأ بين طائفتين في عروضات القيامة طائفة تدعى أنها كانت تعبد طائفة من دون الله تعالى والطائفة المعبودة تستغيث بشهادة الحق سبحانه وتعالى، وتعلن أنها كانت غافلة عن هذا النوع من العبادة وهذا الضرب من التقديس، والحقيقة أن الغفلة قاسم مشترك بين الطائفتين، فهذه غفلت حتى أشركت وهذه غفلت عن إشراكها مع الله تعالى.

18 - الغفلة والعلم:

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة يوسف: ٣).

كان النبي ﷺ أميا ومصدر علمه الوحي الإلهي، ولم يمن له مصدر غير ذلك - السابقة على الوحي - فترة عدم العلم - بالغفلة ويقول سبحانه: - «إن كنت من قبله - أي القرآن - لمن الغافلين. ويؤخذ من فحوى الآية أن العلم والغفلة لا يجتمعان أبدا، إلا إذا كان العلم في ظاهر الدنيا. والغفلة عن الآخرة، في هذه الحالة يجتمع العلم والغفلة.

وهذا الاجتماع دليل غفلة أيضا، لأن المعلومات العلمية الحياتية التي تصرف الإنسان عن وجدانه الموحد (ألست بربكم) هذه المعلومات هي عوامل عقلة، وليست زادة علم، ومن هنا فإن العلم والغفلة لا يجتمعان. والنتيجة: أن أي علم لا يؤدي إلى خشية

الله تعالى وتوقيره لا يعتبر علما بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة، فهاروت وماروت كانا يعلمان الناس السحر، وهذا على له قواعده وأصوله، ومع ذلك كانا يطلقان على علمهما الفتنة (نحن فتنة فلا تكفر) وبعض المنتسبين إلى الدعوة يشعرون بسعادة طاغية حين يطلق الناس عليهم الألقاب مثل العالم الجليل صاحب الفضيلة... إلخ

ويكتفى بهذه الألقاب عن النظر في ماهية علمه. هل هو علم زاده خشية لله تعالى، وتفانيا في خدمة أمته ودينه، هل حدد موقع الله تعالى من نفسه أم ازداد غرورا، وطفق يتعالى على خلق الله تعالى وهرع يجمع المال باللمز ويضرب المثل للناس في الكنز، فهل يسمي علم هذا علما؟ أم نطلق على هذا العلم على الغفلة؟ أو غفلة العلم؟ ويرى الإمام الزمخشري أن الغفلة ضد العلم في الآية السابقة فيقول: (كنت من قبل إحيائنا إليك من الغافلين عنه أى من الجاهلين به، ما كان لك فيه على قط، ولا طرق سمعك طرف منه)^(١).

وفي هذا النص يؤكد الإمام الزمخشري قاعدة مناهضة الغفلة للعلم. ومرادفتها للجهل، إلا أنه يجب التنبيه إلى أن علم النبي ﷺ ليس كعلمنا وجهلنا بالشئ ليس كجهلنا، ولكننا نبحت عن القاهدة، من خلال العطاء القرآني الزاخر، لأن جهل النبي ﷺ بالشئ يدفعه للبحث عن العلم به، أما جهلنا فإنه يكون أحيانا بعد علم وطريقا للمعصية أعادنا الله تعالى منها. ومن كل غفلة تؤدي إليها.

19 - الغفلة المحمودة (الغفلة عن المعصية)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (ورة النور: ٢٣).

الغفلة بمعناها الحقيقي تجاهل الإنسان لأمر معين تجاهلا يجعله لا يعلم عنه شيئا في النهاية، فإذا ما تجاهل الإنسان الكريم المعصية أصبح لفرط تجاهله لها، لا يعلم عنه

(١) الإمام الزمخشري: تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٢ طدار الصحف بدون

شيئا في النهاية. فإذا ما تجاهل الإنسان الكريم المعصية أصبح افرط تجاهله لها، لا يشعؤ بوجودها في المجتمع وعلى هذا جاء الوصف بالغفلة في هذه الآية الكريمة، وهذا الوصف بالغفلة في مقام الإطراء. ويكشف شيئا كثيرا عن ماهية الغفلة. وأنها لفرط التباسها بالإنسان تجعله محمودا إن غفلة المعصية مذموما أن غفل عن الطاعة ويعرف الإمام الزمخشري "الغافلات" بقوله: (السليمات الصدور والنقبات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء، ولا مكر، لأنهن لم يجرين الأمور، ولم يرزن^(١) الأحوال، فلا يفتنن لما تفتنله المجربات العرافات^(٢)).

20 - الغفلة والمصير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة مريم ٣٩).

للإمام الزمخشري رايان في لفظة الغفلة مع قضاء الأمر في هذه الآية:

الأول: إن الغفلة كانت في الدنيا وقضى الأمر وتحدد مصيرهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن قضاء الأمر تم في الآخرة وساق في ذلك حديثا للنبي ﷺ أنه سئل عن قضاء الأمر فقال: "حين يذبح الكبش والفريقان ينظران والإمام ابن كثير استدل أيضا بهذا الحديث على هذا النحو السابق فقال^(٣)

(عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ص: « إذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار يريجاء بالموت كأنه كبش أبلج فسيوقف بين الجنة والنار: فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟

(١) يرزن، رزن بالمكان رزونا الشيء رزنا رفعه ليعرف وزنه. المعجم الوسيط ج١ ص ٣٤٣ صحيح اللغة العربية بدون تاريخ.

(٢) تفسير الكشاف ج٢ ص ١٢ دارالمصنف بكشافه ج١ ص ٩.

(٣) حديث إذا دخل أهل الجنة الجنة.. الحديث. الإمام أحمد في مسنده والإمام البخارى في صحيحة بشرح فتح البارى ج٨ ص ٤٢٨. ط المطبعة السلفية بدون. وفي صحيح مسلم رقم ٢٨٤٩ في الجنة وصفة نعيمها ج٤ ص ٢١٨٨ ط الحلبي ١٩٥٥ م.

قال فيشرثيون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح قال: ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ص: « وأنذرهم يوم الحسرة أذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده ثم قال: « أهل الدنيا في غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم ولفظهما قريب من ذلك^(١)

لا أدري لماذا اتجه كثير من المفسرين إلى اعتبار أن قضاء الأمر تم يذبح الكبش لأن ذبح لأن ذبح الكبش خاص بقضاء أمر الموت والحياة، أما قضاء الأمر في الآية فهو وصول الإنسان إلى درجة من المعصية تجعله مستحقا لعذاب الله تعالى، وهذا يحدث وهو مازال غافلا سادرا في غيبه.

ويوضح ذلك إشارة رسول الله صلى وسلم بيده بعد الحديث وقوله: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» أى ساء مصيرهم «وهم يحبسون أنهم يحسنون صنعا» وعلى هذا أرى أن الغفلة في الدنيا، وأن قضاء الأمر خاص بالغافل يتم في الدنيا. ويقصد هذا عجز الآية «وهم لا يؤمنون، لأنه لو كان قضاء الأمر في الآخرة فإن الجميع يؤمنون لا محالة ولكن لا ينفع الغافل إيمانه.

21 - الغفلة والحساب:

قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١)

هذه الآية تنبيه آخر للبشر جميعا، بأن الحساب آت لا محالة ومع ذلك فأهل الغفلة معرضون عن كل نصح أو تنبيه.

22 - الغفلة والندم:

قوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٧)

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٢ ط الحلبي.

في هذه الآية فوائد سيكولوجية - نفسيه - لمعرفة عمق نفسية الغافل، فالغافل لا يفيق من غفلته إلا بالقوارع العظيمة، والنوازل الأليمة، أو جذبه بعنف يقطع عليه لذة الغفلة. وغفلة الملل الرتيب.

23 - غفلة المتيقظ:

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ (سورة القصص: ١٥).

هذه الآية نوع جديد من الغفلة ثم يرد قبل ذلك، وهو في غفلة الناس وذوولهم عن كل جديد أو غريب أو متغير يمر أمامهم. لقد كان سكان المدينة موجودين فيها متيقظين حين دخلها نبي الله تعالى موسى عليه السلام، ولكنهم - لغفلتهم - لم يلتفتوا إليه، والتعبير القرآني الجميل يصور هذه الحالة الذاهلة الغافلة، (على حين غفلة من أهلها) وكثير من الأحداث تقع بسبب عدم شعور الناس بشئ غريب، قبل وقوع الحادثة، إن الإنسان يأخذه شغله بالدنيا، يأخذ نفسه من نفسه حتى تراه مفتوح العينين، متيقظا سميعا، ولكنه لا يميز صوتا هاديا، أو شخصا قائما.

24 - الغفلة والغطاء:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق: ٢٢).

هذه الآية تعطى كثيرا من أسرار الغفلة، ومن توفيق الحق سبحانه وتعالى أنها في نهاية هذه السلسلة الموضوعية عن الغفلة في القرآن الكريم، فالآية تذكر أن هناك غطاء على حواس الغافل. لا يرتفع إلا بعد زلزة الساعة الشئ العظيم.

فما هو هذا الغطاء الذي يحتاج في كشفه إلى القيامة؟ ولماذا لا يرى الإنسان الحقائق إلا إذا أصبح بصره حديد؟ وهل يستطيع الإنسان أن يحد بصره بنفسه، وأن يجعله كليلا خاسئا حسيرا؟.

حول هذه الأسئلة بدور هذا البحث عن الذاتية الغافلة، ولكن قبل أن نستخلص النتائج نبدأ برأى المفسرين الأحلاء لتوضيح معنى كلمتي "غطاءك" "حديد" (لقد جعل الغفلة كأنها غطاء، غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ، وزالت الغفلة عنه، وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديداً لتيقظه^(١)).

يؤخذ من تفسير الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى أن الغفلة تصنع غطاء حول صاحبها كأنه خيمة تجعله لا يسمعوها يبصر الحقائق، ويعيش في غفلة حتى تكشف بفعل القيامة فيعود بصره الكليل حديداً. ويقول الإمام ابن كثير: (لقد كنت في غفلة من هذا يعنى من هذا اليوم "فكشفتنا عنك فبصرك لليوم حديد" أى ترى، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك^(٢)).

ونخلص من هذا بنتائج أهمها:

أولاً: أن الغفلة تصنع غطاء حول الإنسان، ويقوى هذا الغطاء من الغفلة. ثانياً: أن الحواس لها مهام دنيوية وأخرى أخروية إلا أن هذه المهام الأخروية تتعطل بسبب الغفلة، وتعطل الحواس يعد أكبر أعراض الغفلة، وأهم معضد لها. ولذلك تضعف الاستجابة عند الغافلين.

(ب) الغفلة ومسئولية الإستجابة.

الموقف الأول: إهمال الغافل ملكاته الموهوبة له.

(١) تفسير الكشاف ج ٦ ص ٢٧ دار المصنف.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٥ ط الحلبي.

يقول الحق سبحانه وتعالى، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعِينٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٨﴾^(١).

في هذه الآية يثبت الحق سبحانه وتعالى الحواس للذين يستحقون العذاب في الآخرة ولكنه يثبت تعطل هذه الحواس عن الإدراك بسبب غفلتها. والآية الكريمة تجعل الغفلة سببا لتعطل الحواس عن الإدراك بسبب غفلتها. والآية الكريمة تجعل الغفلة سببا لتعطل الحواس عن الإدراك. وتجعل عدم الإدراك سببا للغفلة، والغفلة تعنى انفصال الذات عن الموقف الذي تغفلة أو تراه أو تسمعه.

ولذلك يقول الإمام الرازي في تفسير الآية السابقة: (إن الإنسان إذا تأكدت نفرتة عن الشئ، صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة مانعة له من فهم الكلام الدال على صحة الشئ. ومانعة عن إبصار محاسنه وفضائله، وهذه حالة وجدانية ضرورة يجدها كل عاقل من نفسه، ولهذا قالوا في المثل المشهور: حبك الشئ يعكس ويصم)^(٢).

وهذه الفقرة من تفسير الرازي تصف خمول الذات بالنفرة وهو وصف تترتب عليه المسئولية في الثواب والعقاب، وليست المسئولية جبرية كما يرى في عموم تفسيره لهذه الآية^(٣). إلا أنه أجاد وصف هذه الحالة بأنها حالة وجدانية تمنع الإنسان من الفاعلية، أو الإنفعالية مع ما يعقل أو يرى أو يسمع.

تفسير الكتاب:

يقول الإمام الزمخشري عن الذين تحدثت عنهم الآية السابقة: (هم المطبوع على قلوبهم، الذين علم الله أن لا لطف لهم. وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٦٧ ط دار الفكر ط ١٩٨٥ م.

(٣) أنظر ص ٦٤. ٦٥. ٦٦. ٦٧. من المصدر السابق

الحق، ولا ينظرون بأعينهم ما خلق الله نظر إعتبار. ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تفسير. كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واستماع الاذان، وجعلهم لإغراقهم فى الفكر، وشدة إنخراطهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار، دلالة على توغلبهم فى الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى الله تعالى عنه إلى خالد بن الوليد، (أبلغنى أن أهل الشام إتخذوا لك دلوكا عجن يخمر. وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرءا للنار.

ويقال لمن كان عريقا فى بعض الأمور: ما خلق إلا لكذا، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ فى عدم الفقه، والاعتبار والتبور ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون فى الغلظة. وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار^(١)

ويتجه الإمام الزمخشري فى تفسيره لهذه الآية إلى أن الآية الكريمة تحدد صفات الذين خلقوا للنار، ولا تحدد أعيانهم. وهو عكس ما ذهب إليه الإمام الرازى من أن الذين خلقوا للنار لا تنفعهم طاعة، ولا تزيد فى عقابهم معصية لأنهم هكذا خلقوا للنار، والحقيقة أن هذا الإتجاه فى التأويل له خطره، وكان من الممكن حمل معنى الآية على معنى قوله تعالى: «وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون»^(٢) فقد خلقهم جميعا للعبادة. ولكن بعضهم قد اختار المعصية وسار فى دربها، فكان من هؤلاء الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.

فإذا ما تجاوزنا هذا الصراع الفلسفى الذى فرضته ثقافة عصر الإمامين الجليلين وظهر فى تفسيرهما للقرآن الكريم، فسبقى لنا بعد ذلك رؤيتهما العميقة لأغوار النفس البشرية.

(١) الإمام الزمخشري. الكشاف ج٢ ص ١٣١ - ١٣٣ ط الحلبي ١٩٧٢.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

وكيف أنها إذا خملت ورضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها أعرضت تماما عن الآخرة، وأصبحت لا تقبل دليلا عقليا عليها، ولا تصدق الأعين والأذان إذا رأت أو سمعت شيئا يدل على الآخرة.

تفسير الظلال:

يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: (فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسائل تدركه القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة. لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبها، ولم يستخدموها، لقد عاشوا لا يتدبرون)^(١).

تكلم المؤلف الجليل كسابقه عن التخيير والتسيير إلا أن هذا البحث يركز على غفلة الذات وخمولها. ولذلك تم نقل الجانب الخاص بالخمول والغفلة فقط.

الموقف الثاني: تبلد الغافل في مواجهة الحدث.

في الموقف السابق تجلت الغفلة في ترك الإنسان لمملكاته الموهوبة من غير استعمال صحيح، وفي هذا الموقف تتضح الغفلة من عدم فهم الإنسان للمعقول والمسموع والمشاهد أو في عدم الاستجابة لمعقولاته، ومشاهدته ومسموعاته، أي الخمول والتبلد في مواجهة الحدث. وهو ما يميز الذاتية الفاعلة، والمنفعلة، لأن الفاعلة تنشئ الحدث، والمنفعلة تستجيب له، ولكن الغافلة لا تتأثر به إطلاقا، بل تمضي في الحياة بفطرة أصابها الضمور، وبفؤاد هواء، ويفر هراء.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن القصور في الاستجابة، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا

(١) الاستاذ/ سيد قطب. في ظلال القرآن ج٣ ص ٧٤ ط دار الشروق ١٩٨٧م.

سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ
 ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾^(١).

فى ظلال القرآن:

يقول صاحب الظلال: (يعود إليهم لمهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله، ويذرهم التولى عنه، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تعالى تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها، أولئك الصم والبكم. وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات، وألسنة تنطق بالكلمات تنطق بالكلمات، أولئك الذين هم شر الدواب التي تدب على هذه الأرض لأنهم لا يهتدون بما يسمعون... إن التولى عن الرسول وأوامره ليبدو مستنكرا قبيحا، لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر، وعقل يتفكر، ومن هنا يجئ ذكر الدواب في موضعه المناسب ولفظ الدواب في موضعه المناسب ولفظ الدواب يشمل الناس فيما يشمل، فهم يدبون على الأرض.

ولكن إستعماله يكثر في الدواب من الأنعام، فيلقى ظله بمجرد إطلاقه، ويخلع على الصم البكم الذين لا يعقلون صورة الهيمة في الحس والخيال، وأنهم كذلك أنهم لدواب بهذا الظل، بل هم شر الدواب... لأن العقل قد يدرك، ولكن القلب المطموس لا يستجيب فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم، لتولوا هم عن الاستجابة، والاستجابة هي السماع الصحيح، وكم من أناس تفهم عقولهم، لكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب)^(٢).

يركز المؤلف في الفقرة السابقة على خصائص الذاتية الغافلة - الهيمة - عدم الاستجابة - ترك السماع الصحيح - ويقول: (كم من أناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب)، وهذا الفهم للنص يلقي ظلالا على كثير من المسلمين المعاصرين وكيف أنهم مع بلوغهم الدرجات العلمية السابقة إلا أنهم لا يشعرون تجاه عقيدتهم

(١) سورة الأنفال: ٢٠ - ٢٣

(٢) الأستاذ/ سسيد قطب. في ظلال القرآن ج٣ ص ١٤٩٣.

وأمتهم بأى شعور ينبئ عن الاستجابة والفاعلية. بل تراهم منصرفين إلى غايات صنعوها في عقولهم، ونسجوها في خيالهم وعاشوها في خيالهم وصدق الحق تعالى: «أولئك كالأنعام بل هم أضل» إن جنة كثير من الناس لا توجد إلا في خيالهم وواقعهم من خلال غفلتهم - جهنم ويأس المصير، وقديما قال المتنبي: وأخر الجهالة في الشقاوة ينعم.

تفسير الكشاف:

يقول الإمام الزمخشري: (ولا تقولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه وانتم تسمعون) تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذابين من الكفرة ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى أدعوا السماع ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين، والمعنى، إنكم تصدقون بالقرآن والنبوة. فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور كقسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كالا تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن، ثم: (إن شر الدواب) شر من يدب على وجه الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلها شرها، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الصَّمِّ الْبِكْمِ ﴾ خيراً ﴿ أَى انتفاعا باللفظ ﴾ لَأَسْمَعَهُمْ ﴿ اللطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال (ولو أسمعهم لتولوا) عنه: يعنى ولو لطف بهم لما تقفهم اللطف. ولذلك منعم أطفاه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا^(١).

أحسن الإمام الزمخشري حين ربط في النص السابق بين السماع النافع الفاعل وبين التصديق، فيقول: «لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين» فأدخل التصديق هنا كعنصر فعال في نقل السماع الدينى إلى حركة موجبة فاعلة في الأداء. وبين أن الغفلة كما تعتمد على الخمول والبلادة فهى أيضا تتركز على عدم التصديق.

(١) الإمام الزمخشري. تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٥٠، ١٥١.

تفسير الرازى:

يقول صاحب التفسير: « أنه تعالى أمر بطاعة الله وبتطاعة رسول الله، ثم قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ لأن التولى إنما يصبح في حق الرسول ﷺ بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله، وعن معونته في الجهاد، ثم قال مؤكداً لذلك ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه. فجعل السماع كتابة عن القبول، ومنه قولهم سمع الله لمن حمده والمعنى ولا تكونوا كالذين يقولون بألسنتهم إنا قبلنا تكاليف الله تعالى، ثم إنهم بقلوبهم لا يقبلونها وهي صفة للمنافقين... ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ واختلفوا في الدواب فقيل شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم. ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون، وقيل بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم^(١).

في هذا النص إضافة إلى المعانى السابقة، لأنه جعل السماع كتابة عن القبول وأظهر على الرقص عند هؤلاء، وعدم السماع النافع، بأنها ترجع إلى عدم قبول تكاليف الدين أصلاً. وهذا يلقي ضوءاً على قصور الذاتية الغافلة عن الاستجابة وربط ذلك بعدم القبول.

(١) تفسير الرازى ج ٨ ص ١٤٧، ١٤٩

الفصل الثانى

دراسة الغفلة كمرض عضوى

الغفلة العقلية - التفاعلات البيولوجية:

يذكر القرآن الكريم كثيرا من من الحقائق الأساسية عن النفس الإنسانية بكل أقسامها الفاعلة والمنفعله والغافلة.. إلخ إلا أن كثيرا من مفسرى القرآن الكريم ينظرون إلى هذه الحقائق نظرة أدبية فيفسرون الحديث عن النفس السوية بأنه من باب المدح والرضا، وينظرون للحديث عن النفس المريضة على أنه من باب الذم. وهم - رحمهم الله تعالى جميعا - غير ملمومين، لأن القرآن الكريم لا يكشف كل أسراره فى زمن واحد، بل يتجدد عطاؤه مع كل زمن جديد، وإن كان يعطى فى كل زمن ماض ما فيه الكفاية للهداية. وفى حديثه عن النفس الغافلة التى لا تستجيب أعطى القرآن الكريم كثيرا من الحقائق العلمية الأساسية التى تجاوزت كل ما وصل إليه علم النفس وهيمنت عليه، وصححت ما وقع فيه من أخطاء.

فعلم النفس يؤكد أن الاستجابة درجة من درجات رقى الحيوان، فكلما كانت الاستجابة قوية، كان هذا الحيوان المستجيب أرقى فى نوعه، وكلما كانت الاستجابة ضعيفة أوردية كان ذلك دلالة على بدائية هذا الحيوان، وبلادة طبعه.

ويأتى القرآن الكريم فيصف الذين لا يستجيبون بأنهم أدنى منزلة من الحيوان فى الوصف وأضل سبيلا فى السعى والنهج، وهو بذلك يضمن بوصف الحيوانية على الإنسان

الذى لا يستجيب ويجعلها منزلة لا يرقى إليها، ولا يعتمد، فالغفلة في القرآن الكريم لبست وصفا نفسيا للإنسان في سلوكه ووجدانه، بل هي تفكك عضوى في بنيانه وكيانه.

يقول الله تعالى عن الذين لا يستجيبون: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ لِيَلْزَمُوا ۚ ﴾ (٣٦) (١).

ويقول الله تبارك وتعالى عن الذين عطلوا حواسهم عن الإدراك الصحيح فاستحقوا جهنم ساءت مستقرا ومقاما: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢).

فهؤلاء لهم عقول وأعين وآذان وهي من الناحية العلمية ليست معطلة عن الإدراك، ولكنها تجمدت عند الإدراكات البدائية التي لا تقوم الحياة إلا بها فهم قد عاشوا الحياة لمجرد أنها حياة، أو عاشوا «الحياة بالحياة» ولم ينطلقوا إلى الهدف من الحياة، إلى إدراك المجردات والغيبات ويربطون بين العلاقات وبين الأشياء المشاهدة، والأشياء المستفادة منها.

إنهم عاشوا الوجود كوجود موجود، ولم تتجه عقولهم إلى وأهب هذا الوجود -الحق سبحانه وتعالى. ومثلهم في ذلك كمثل رجل اشترى سيارة وأدخلها إلى مكان معد في بيته، ووضع بداخلها الوقود، ثم حرك مفتاح الإدارة، فتحركت أجهزة هذه السيارة، ولكنه أبدا - لم ينطق خارجا لهدف ينشده، وكأنه أدرك أن مهمة السيارة محصورة في عمل أجهزتها فقط، وليست لوصول الإنسان بأهدافه العملية في الحياة، فالإنسان الذى لا يستجيب لربه يعيش حياته من غير هدف، وينصرف عينها من غير أمل ولذلك يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

(١) سورة الأنعام: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال: ٢٢.

إنهم يعقلون كثيرا من الأشياء ولكنها ليست الأشياء التى يريد لها الله تعالى، الأشياء التى ترقى الذات، وترقى بها إلى درجات الخلافة الكاملة لله سبحانه وتعالى.

الاستجابة العضوية وأجهزتها فى كتب على النفس:

من الأهمية بمكان الحديث عن الاستجابة وأجهزتها فى الجسم الإنسانى والعوامل التى تؤثر عليها، قبل الحديث عن الاستجابة من الناحية الروحية لأن الذات الجسدية هى وعاء الذات الروحية. وإذا طرأ على الذات الجسدية ما يمنعها من الوعى والإدراك ارتفع التكليف كما فى حالة النوم والجنون وقبل التمييز بالنسبة للأطفال، رغم أن هدف التكليف الرقى بالروح والحفاظ على الجسد لهذا الغرض أيضا، وليس لمجرد الحفاظ، من غير نسبته لهدفه.

والحقائق العلمية عن الاستجابة وأجهزتها مثبتة فى كثير من كتب علم النفس، وكتب الأمراض العقلية، إلا أننى سوف أقوم بتلخيصها من عدد قليل من المراجع مع الحذف أو الإضافة إن اقتضى الأمر. وسوف أذكر هذه المراجع فى نهاية التلخيص.

سنرى فى دراسة الجملة العصبية أن تعقدها يزداد من الحيوانات الدنيا إلى الحيوانات العليا، فتزداد تبعا لذلك قدرة الإنسان على التفكير، وعلى العمليات النفسية الكبرى، كما سنرى أن الهرمونات التى تفرزها الغدد هى سبب الكثير من الأفاعيل النفسية، ويتقرر فى أذهاننا أن الجسد والنفس كل موحد مظهره الشخصية الفردية كما يتقرر فى أذهاننا أنه لا مجال لدراسة النفس إلا بالتعرف على الجسد وأخذه بعين الإعتبار. كما نشير إلى أهمية الحواس المختلفة فى الأفاعيل النفسية.. وقديما قيل بحق، أن الحواس هى نوفذ العقل بوسطها بتكون الإدراك، وعن طريقها بتصل الإنسان بالعالم الخارجى.

المؤثرات والاستجابات:

ليست الأفعال النفسية إلا الاستجابات العصبية للمؤثرات المختلفة ويرمز إلى هذا الوضع بالقوس (م - ع - س) وتعنى (م) المؤثر و(ع) العضوية و(س) رد الفعل أو الاستجابة.

في امكاننا ونحن ندرس الأفاعيل النفسية أن نصب انتباهنا على المؤثرات أو الاستجابات لأنها تصدر عن العضوية. لذلك كان من الأهمية بمكان أن ندرس هذه العضوية. لنستطيع أن نتعرف على هذه الاستجابات. وهذه العضوية يجب أن تكون مستعدة، أى مزودة بعدة تمكناها من التقاط المؤثرات، وهذه العدة تسمى الحساسية، وهى تحدث عن طريق وجود حواس مزودة «بالجوايز» وتسمى هذه الجوايز بأعضاء الحس أى «الحواس» فهناك جزء من العين خاص، عمله التأثير بالمؤثر الضوئى لجعل عملية الإبصار ممكنة، وكذلك فى باقى الحواس، وهذا الأثر ينتهى عند أعضاء تتلقاه وتكون رجعا (استجابة) له وهذه الأعضاء تسمى «بالنوابذ» ويصل عادة بين «الجوايز» أعضاء الحس، بين (النوابذ). أعضاء الحركة مركز ينقل هذا الأثر ويساعد على إيصاله من أعضاء الحس إلى أعضاء الحركة..

ويتم كل ذلك بفعل ذبذبات، أو اضطرابات (كهروكيميائية) وهى التى تسمى بالمسألة العصبية (التيار العصبى) وتنتقل من خليه إلى أخرى من الحواس إلى أعضاء الحركة، وعلى شكل قفزات، أو انفجارات متتاليه، تشبه الشرارات التى تحدث حين تتقابل أسلاك الكهرباء الموحية.

ويلاحظ أن المسألة العصبية حين تعبر أعضاء الحس وتصل إلى أعضاء الحركة تستجيب لها هذه الأعضاء. فتتقلص العضلات وتفرز الغده ويزداد إفرازها أو يقل. والوظيفة الأساسية للجمله العصبية^(١) وهى نقل السيالة العصبية من أعضاء الإحساس إلى أعضاء الحركة والواقع أن الجمله العصبية تختلف من حيوان إلى آخر تصل إلى ذروتها فى الإنسان. وبصورة خاصة فى القشرة الدماغية، التى يتوقف على ردود أفعالها معظم الأفاعيل النفسية الراقية والتفكيرية، منها بصورة خاصة. وعن طريقها يمكن التفكير والتذكر والتخيل.

(١) حسية تنقل الأثر من أعضاء الحواس إلى الحبل الشوكى والدماغ.

الجملة العصبية:

الجملة العصبية آلة مختصة بالنقل، فى تنقل الأثر من الجوايز (أعضاء الحس) إلى النوايز (أعضاء الحركة) ففى الأمية ينقل الجسد (بكامله) هذا الأثر. وفى الحيوانات الأكثر رقيا، توجد عضلات تنقلص حين يقع عليها المؤثر، وفى الحيوانات التى تليها فى الرقى توجد بعض الألياف العصبية التى تصل بين العضلات الواقعة تحت السطح الظاهر، والجوايز الموجودة فى الجلد، ففى حيوان شقائق نعمان البحر. تكون الجملة العصبية عبارة عن ليف عصبى يحمل الأثر من الجوايز إلى العضلة مباشرة، فإذا ذهبنا إلى حيوان أرقى نجد أن الأثر ينتقل من عضو الحس إلى العضلة عن طريق شبكة من الألياف العصبية.

الخلية العصبية:

تتكون الألياف العصبية من الخلايا العصبية التى تستطيع كل منها أن تعمل منفردة وتعطى أثرا مثيرا لمؤثر معين يقع على جزء معين من الجسد وهذا ما يحدث فى حالة تعرض أصبع لشئ محرق، وسحب اليد نتيجة لذلك، والخلية العصبية عبارة عن جسم خلية واستطالات من الطرفين. وتجتمع هذه الخلايا فتكون ما يسمى بالليف العصبى، ثم تجتمع الألياف العصبية فتكون ما يسمى بالعصب.

والخلايا العصبية ثلاث أنواع:

- ١ - الجملة العصبية هى العلاقة بين الجوايز والنوايز، أى بين (الحس والحركة) أو الأدلة التى تقل الأثر من الحس إلى الحركة أو من المصل إلى الفهم ثم الحركة وهذه معطلة عند الذاتية الغافلة فهى تفهم لكنها لا تعقل أى لا يتحول إلى الاستجابة.
- ٢ - وحركية تنقل الأثر من الحبل الشوكى أو الدماغ إلى أعضاء الحركة.
- ٣ - ومواصله أو مركزية موجودة فى الدماغ أو الحبل الشوكى وتقوم بالوصول والربط بين أعضاء الحس وأعضاء الحركة.

إن الألياف العصبية في تجمعها وتكوينها للأعصاب تكون مغلفة بمادة شحمية. تفصل بينها ويكون لونها أبيض أو يميل إلى البياض والتيارات المختلفة التي تمر في الليف العصبى لها نفس الشدة مهما اختلف طبيعة التيار أو شدة المؤثر.

وعندما يستجيب اليف العصبى فإما أن يستجيب استجابة كاملة أو لا يستجيب تماما ويسمى هذا المبدأ (كل شئ أو لا شئ) وصدق الحق تعالى: "لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها" وبعد أن تستجيب الخلية العصبية للمؤثر يبقى هناك وقت لا يمكن خلاله إثارة الخلية بمؤثر آخر يسمى بوقت التمرد المطلق، وأقل مدة له هي جزء من الثانية.

وحين يشار الليف العصبى فإنه يصبح أشد قبولاً للنفوذ فيسمح للشوارد الإيجابية بالمرور والاتجاه مع الشوارد فيمر التيار الكهربائى السالب فى اليف. وهذا التيار هو ما يسمى بالسيالة العصبية أو التيار العصبى وتكون سرعة انتقاله مختلفة باختلاف حجم الألياف. وتبلغ هذه السرعة فى المتوسط أربعة أميال فى الدقيقة الواحدة وبعد مرور التيار فى منطقة معينة بمدة قصيرة، تعود حالة الشوارد إلى ما كانت عليه مستعدة لمرور تيار آخر:

الوصلة:

والوصلة هى المنطقة الموجودة بين طرفى خلية عصبية و خلية عصبية أخرى، لذلك فالسيالة العصبية (التيار الكهروكيميائى) تتباطأ حين يمر بالوصلة، لأن التيار يجب أن يقفز عبر الوصلة لى يصل إلى الخلية العصبية الثانية.

وللوصلة وظيفتان هما: التسهيل نوعان تسهيل مكانى: يحدث حين ترد الدفعات العصبية على ليف عصبى ونكون شدتها غير كافية لعبور الوصلة، وتبقى عاجزة عن العبور إلى أن تصل دفعات أقوى وأكثر^(١).

(١) يمكن التنظير هنا للذاتية الغافلة: أن استجابتها تظل ضعيفة إلى أن يرد إليها مؤثر قوى فيدفعها دفعا للاستجابة.

ويحدث التسهيل الزمانى: حين تكون الدفعة بحد ذاتها أضعف من أن تستطيع عبور الوصلة، ولكنها بتتاليها مرات عديدة تستطيع عبور الوصلة^(١) ومن فوائد الوصلة المنع العصبى، أى منع الاستجابة لمؤثر آخر طالما بقى تأثير المؤثر الأول، وقد قام العلماء بعمل تجارب لذلك على الضفادع فوجدوا أن الضفدع حين تجرح رجله يقفز، أما حين يكون مشغولاً بالفعل الجندى فإنه لا يقفز، فكان العمل الجندى منع الضفدع من الاستجابة^(٢).

الأعصاب:

وهى مجموعة من الألياف يشبه كل منها السلك الكهربائى، وما المادة البيضاء الدهنية التي تغطى كثيرا من الألياف فى الجملة العصبية إلا عوازل للفصل بين الليف والآخر. والعصب البصر عند الإنسان والذى يحمل الآثار الضوئية من الشبكية إلى الدماغ سلك مؤلف من ٤٠٠ ألف ليف منفصل بعضها عن بعض إلا أنه من أكبر الأعصاب فى الإنسان، أما الأعصاب الباقية فهى مكونة من عدد كبير من الألياف. زكلما كان المؤثر شديدا على أداة الحس، استجاب لذلك عدد أكبر من الألياف العصبية.

أقسام الجملة العصبية:

تنقسم الجملة العصبية عند الإنسان إلى قسمين رئيسين هما الجملة العصبية المركزية. والجملة العصبية المحيطة، وتنقسم المركزية إلى:

- ١ - الدماغ: وهو مؤلف من المخ والمخيخ وجزء الدماغ المؤلف بدوره من الدماغ المتوسط والبصلة السيسائية. أو النخاع المستطيل.
- ٢ - الحبل الشوكى.

(١) تكرار الموعظة للذاتية الغافلة (فذكر إنما أنت مذكر).

(٢) وكذلك الإنسان لو تخيل العذاب والغي والسمع وهو شهيد رجع من غيه أما إذا سمع لموعظة وهو غافل القلب مشغول بالدنيا لم يتأثر بها.

أما الجملة العصبية المحيطة فتتألف من الأعصاب المخية الشوكية ثم الجملة العصبية المستقلة (الودية والبارودية)

توضيح الجملة العصبية

(أ) المخ:

في كثير من الحيوانات التي تنحصر بين الأسماك والطيور يحتل المخ جزءا صغيرا من الدماغ وتنحصر أهم وظائفه في حاسة الشم. إلا أن الشم وما ينتج عنه من ثناء نسيجي يتضاءل كلما تقدمنا في سلم "التطور"^(١) الرقي ففي الدماغ البشري يكون الفصان الشميان مطمورين (مندرجين) تحت المخ الذي يفوقهما في الحجم كثيرا كما أن النسيج الشهي المساعد يكون صغيرا، ومع زيادة حجم المخ تحدث تغيرات كثيرة من سطحه، فسطح دماغ الفئران والأرانب مستو ناعم. وفي القطط والكلاب يبدأ التجمد في القشرة الدماغية ويمكن القول أنه كلما إزداد رقي الإنسان إزداد تجمد قشرة دماغه، وتعتبر القشرة الدماغية هي أهم جزء من أجزاء المخ.

(ب) المخيخ:

معظم وظائف المخيخ غير معروفة للعلماء حتى الآن، إلا أنه يرتبط بالمهارات التي تحتاج إلى تناسق عدد كبير من العضلات كالسباحة والمشي والكلام والكتابة. وتبدأ فاعلية المخيخ من دفعات عصبية تأتي عن طريق الجوايزد الحركية والسكونية. ويحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء السير والنوم^(٢) على السواء. والمخيخ يضاوي الشكل وهو أصغر من المخ، وموقعه أسفل الجمجمة، ويتصل بالمخ من أسفل، وإزالة المخيخ لا تؤثر على الوظائف الأساسية للإنسان ولكنها تسبب فقدان التوازن.

(١) يتأثر كثير من علماء العرب بعلم النفس الغربي ولذلك تظهر في كتاباتهم نظرية التشوه والإرتقاء لداروين. أنظر النشوء لداروين.

(٢) يحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء النوم فلا يسقط من فوق سريره رغم أنه يتقلب كثيرا.

(ج) جزع الدماغ:

يحتوى جزع الدماغ على مراكز عصبية متعددة كثيرة التعقيد، تشبه آليات اللوحة الكهربائية، وتعمل هذه المراكز على النفرك بين الاحساسات الواردة وتوزعها إلى مراكزها المختصة. والوظيفة الأساسية لجزع الدماغ هى الإهتمام بأنواع السلوك اللاشعورى الروتينى وهو يتكون من البصلة السيسائية، والحدبة الحقلية، والدماغ المتوسط والتلاموس، والهيبوتلاموس، والجسم المخطط.

(د) القشرة الدماغية البشرية:

تتصل القشرة الدماغية بجزع الدماغ والحبل الشوكى بواسطة ألياف عصبية حسية وحركية، ومما يجدر ذكره أننا نجد نوعين من النباتات فى القشرة الدماغية: النوع الأول: فراجين نهائية للمحاوير تأتى من التلاموس وغيره من مراكز جزع الدماغ وتنتهى فى القشرة الدماغية، وهى تحمل تيارات عصبية حسية إلى المركز العصبية الحسية المختصة على القشرة الدماغية.

النوع الثانى: استطالات أو فروع خلايا عصبية صادرة عن المناطق الحركية للقشرة الدماغية، ومنتهية فى المراكز الدنيا وفى النواذب. وبعض الألياف الهابطة تذهب إلى التلاموس، ومن هناك إلى الجسم المخطط والمراكز الأخرى. وهناك ألياف غير الألياف السابقة تسير مباشرة من القشرة الدماغية إلى الحبل الشوكى.

ويمكن تعيين مناطق حسية على الفصوص، تتلقى الإحساسات الواردة من أجزاء الجسد بواسطة الأعصاب الحسية، والتيارات الواردة إلى هذا الجزء من الجلد تستطيع فى الظروف العادية إعطاءنا الفكرة الأساسية عن الحرارة واللمس مثلا.

والخلايا الحركية فى القشرة الدماغية كبيرة نسبيا، وتوجد على شكل هرم ولذلك تسمى الخلايا الهرمية. وتخريب هذه الخلايا يؤدى إلى تخريب محاويرها. حتى تصل إلى جزع الدماغ

والنخاع الشوكي، والساحة الحركية لنصف الكرة الدماغية تضبط الحركة في الجهة المقابلة من الجسم والعكس صحيح أيضا. وليست القشرة الدماغية مركزا للحس والحركة فقط ولكنها وبواسطة الخلايا العصبية المركزية مركز للربط بين الحس والحركة أيضا. فهي تربط بين أنواع الحس وضروب الحركة. ومن هنا يتضح مدى أهمية القشرة الدماغية البشرية^(١).

الغدد الصماء:

الغدد الصماء من المراكز الخطيرة في الجسد الإنساني التي تؤثر على النشاط العقلي وتمنع الاستجابة - في الحالات المرضية - وتؤدي إلى الغفلة المرضية وعدم الاستجابة الشعورية وسوف نلخصها فيما يلي:

(أ) الغدد الإدرينالية:

يوجد منها في الجسم الإنساني غدتان صغيرتان يقع كل واحدة منهما فوق الكية والجزء الأوسط من الغدة يقال له اللب الإدرينالي. ويفرز الإدرينالين. والنودارينالين. والجزء الخارجي من هذه الغدة يقال له القشرة الإدرينالية. أو الحاء الإدرينالي، ويفرز مادة: السيروبينات، أو شبيهات الكورتيزون. وهذه الإفرازات في الحالات المرضية تعتبر عوامل مساعدة في إحداث المرض العقلي. عندما يسوء أداء القشرة الإدرينالية فيصحبها الإنحلال فيصحب الإنسان بمرض أديسون: أو يزيد نشاطها عن الحد اللازم فيصحب بمرض كوشنج، وكلاهما مرضان جسيما ينطويان في العادة على أعراض عقلية.

(١) د. فاخر عاقل. علم النفس من ص ٤١: ص ٧٧ طدار العلم للملايين ط سادسة ١٩٧٩. نقل بتخليص وتصرف وانظر في ذلك أيضا:

- د. عبد المنعم الحفنى موسوعة علم النفس والتحليل النفسى ط مكتبة مدبولى ١٩٧٥.

- د. لويس كامل ملكية. علم النفس الاكلينيكي من ص ١٦٩ إلى ص ١٩٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م.

ويتميز مرض أديسون: بضعف عضلى عام، اضطراب فى الهضم تلون الجلد بلون برونزى فريد، ومن أعراضه أيضا: التبدل، الخشية، الأكتئاب. والهلاوس والهذيان القابلية للتهيج، الهذات، عدم الاستقرار، الخلط الذهنى، صعوبة التركيز.

ومرض أديسون إذا لم يعالج يؤدي إلى الموت فى نهاية المطاف وأما مرض كوشنج فمن أعراضة: القابلية للتهيج، قلة الرغبة فى التعاون نوبات البكاء، الهياج.

وفوائد الغدد الادرينالية مساعدة الإنسان فى تحمل الضغوط والمواقف العصبية. فإذا ما تعرض الإنسان لموقف صعب فإن هذه الغدد - فى الحالات السوية - تزيد من إفراتها لتساعد الإنسان على التكيف مع هذا الموقف وعندما يصاب الإنسان بمرض نفسى أو عقلى فإن إستجابة هذه الغدد للمؤثرات الخارجية تقل أو تنعدم تماما. وبذلك تتحدد العلاقة الوثيقة بين الغدد الإدرينالية والاستجابة للضغوط.

فشل الغدد الإدرينالية يسبب الأمراض العقلية كما سبق. ولكنه أحيانا يكون نتيجة لها، لأن كثرة الضغوط الناتجة عن الأمراض العصبية والعقلية تجهد الغدد الإدرينالية من كثرة الإستجابة المتكررة.

(ب) الغدة الدرقية:

يترتب على نفس إفراز هذه الغدة نوع من التأخر العقلى يقال له: القصاص، غير أن الزيادة فى إفراز هذه تربط دائما بمرض «بازدو» ومن أعراض هذا المرض: تضخم الدرقية، ارتفاع نسبة التمثيل الغذائى وبعض الأعراض العقلية مثل: القلق، تقلبات مزاجية، القابلية للتهيج، القابلية للاستشارة، إلا أن هذا الارتباط بين إفراز الغدة الدرقية وهذه الأعراض لم يثبت يقينا وإن كان بعض الباحثين يجزم بحدوثه، إلا أن هؤلاء قلة من الباحثين فى هذا المجال.

(ج) غدة البنكرياس:

اشتهر الخلل في إفراز غدة البنكرياس بمرض السكر - الجانب الجسدى منه على الأقل - لأنه لوحظ حدوث الاكتئاب عند مرضى السكر أحيانا بمقدار يتجاوز الاكتئاب الناتج عن المرض عند بعض الأفراد، ولذلك فبعض الأطباء يستخدم مادة الأنسولين التى يفرزها البنكرياس لعلاج الحالات فى الأمراض العقلية، ومن هنا تثبت العلاقة بين غدة البنكرياس والأمراض العقلية، ولو من بعيد بعض الشيء.

(د) الغدد جارات الدرقية:

ظهر كثير من الحالات التى تتراوح بين الخلل العقلى، والإصابة العضوية فى المخ وقد صاحب حدوث هذه الحالات اضطرابات فى الغدد جارات الدرقية، إلا أن العلماء يعتبرون اضطرابات الغدد جارات الدرقية عوامل مساعدة فى الأمراض العقلية وليست سببا مباشرا لها.

يبقى بعد ذلك أن نذكر بعض الحالات التى تؤدى إلى الأمراض العقلية من هذه

الحالات:

- عامل التسمم: لأن أى مادة سامة تدخل إلى دم الإنسان يكون لها تأثير على قواه العقلية.
- عوامل الأمصال: تؤدى زيادة الأمصال فى الجسم الإنسانى أو الخطأ فى إعطائهم إلى بعض النتائج الخطيرة على مخ الإنسان ومن ثم قواه العقلية وطريقة استجابته للمؤثرات الخارجية.

- عوامل الهرمونات: إن استعمال الهرمونات من غير نظام دقيق يسبب أيضا كثيرا

من الاضطرابات النفسية والعقلية على السواء^(١).

(١) (١) ريتشارد "م" سرين، علم الأمراض النفسية والعقلية من ص ٢٢٥ إلى ص ٢٣٦ ط دار النهضة العربية ١٩٧٩ نقل بتلخيص وتصرف وأنظر فى ذلك أيضا.

ومن هنا يتضح دور الجانب الجسدى من الإنسان فى التأثير على استجابته التى تجعله حيا مستجيا أو ميتا غافلا، فالجهاز العصبى له دور، والغدد لها دور، وبعض الأدوية والمواد السامة لها دور، وكل ذلك فى النهاية يسبب أو يساعد على الغفلة والبلادة النفسية. إلا أن بعض أنواع الغفلة الناتجة عن المرض تغفر لصاحبها. وهذا ما دفعنى إلى إلقاء الضوء على هذا الجانب من الغفلة فى الوحدة الثانية من هذا البحث، لأن البحث يدور هنا حول الذاتية الغافلة بسبب المرض ويلتمس لها الأعدار ليخرجها من الذاتية الغافلة بسبب ترك مهابة الجبار، والتجافى عن دار للقرار... وبئس القرار.

-
- الدكتور / مصطفى فهى دراسات سيكولوجية التكيف من ص ٢٣٩ إلى ص ٢٧٤ طمكتبة الخانجى ١٩٧٦ م.
- سعد حلال المرجع فى العلم النفس من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٩٣ ط دار الفكر العربى ١٩٨٥ م.
- د. محمود السيد أبو النيل. الأمراض السيكوسوماتية من ص ٣٤٩ إلى ص ٣٧٠ ط مكتبة الخانجى ١٩٨٤ م.
- د. عزيز فريد. الأمراض النفسية العصبية من ص ١٤ إلى ص ٤٣ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م.

الفصل الثالث

الذاتية الغافلة وكيونتها

كيونة الذاتية الغافلة هي: في إيجاز - ماهيتها، فاعليتها، أثارها، ولذلك ستدور هذه الوحدة، من هذا البحث حول هذه الأطروحات الثلاثة، حتى تعم الفائدة من دراسة الذاتية الغافلة.

(أ) ماهية الذاتية الغافلة:

للذاتية الغافلة ماهية تتكون عن طريق الغفلة حتى تصير هوية للغافل وتأتى هذه الماهية نتيجة مباشرة لتراكمية الذنوب، والغفلة عن خطرها، وإذا كنا في حاجة ماسة إلى علم النفس الوضعى للكشف عن ماهية الذاتية الغافلة، فإننا في أمس الحاجة إلى علم النفس الوضعى للكشف عن ماهية الذاتية الغافلة. فإننا في أمس الحاجة إلى كلمات الله تعالى الفاصلة، فهو خالق النفس وبارئها، وإلى توجيهات سيدنا رسول الله ص، فهو الذى تعلم من ربه كثيرا من أسرار النفس البشرية.

أضف إلى ذلك أنه قد تحققت فيه تجربة النفس الإنسانية الرائدة في الطاعة المشرقة بالإيمان، وهو بهذه الخاصية الذاتية أقدر الناس على فهم أعماق هذه النفس البشرية المحيرة الاستكفاء المجمدة الكنه.

يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

(١) سورة المطففين: ١٤

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أى ليس الأمر كما زعموا، لا كما قالوا: أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله تعالى ووحيه وتنزله على رسول الله ص، إنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما علمها من الرين، الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين^(١).

ويقول الأستاذ / سيد قطب في تفسير هذه الآية: (أى غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الإثم والمعصية. والقلب الذى تمرد على المعصية ينطمس ويظلم، ويرين عليه غطاء كثيف، يحجب النور عنه. ويحجبه عن النور ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلد ويموت^(٢)).

وتدور معظم آراء السادة المفسرين حول فحوى هذين الرأيين في تفسير هذه الآية الكريمة، ومجمل هذه الآراء أن الغفلة تتكون في بداياتها الأولية نتيجة تراكمية الذنوب على قلب العبد.

من هنا نصل إلى الخيط الأول الموصل إلى استكناه ماهية الغفلة، فهى ليست سببا وإنما نتيجة ليست فطرية فى الإنسان. ولكنها مكتسبة له، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ص: "إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه: فإن تاب منها ثقل قلبه. وإن زاد زادت"^(٣).

هذا الحديث الشريف يوضح الطريقة التى تنشأ بها الغفلة عند الذاتية الغافلة، التى تنقلب إلى ذاتية جاهلة، بعد علم أو فطرة بادية، ولكنه ﷺ يربط السبب والنتيجة

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٨٥ دار الشروق
 (٢) الأستاذ / سيد قطب فى ظلال القرآن ج٦ ص ٣٨٥٧ ط دار الشروق.
 (٣) الإمام الترمذى فى سنته واللفظ له. ورواه ابن ماجه وفى سنة ج٢ ص ١٤١٨ كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ط دار الفكر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

في الحديث الشريف بآية القرآن في حديث آخر. فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ص: «إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكث في قلبه نكبة سوداء، فأن هو نزع واستغفر وتاب نقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلق قلبه فهو القرآن الذى قال الله تعالى: «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»^(١).

إذن هناك توافق وتضافر بين القرآن الكريم والسنة الشريفة في شرح ماهية الغفلة وأنها تأتي نتيجة الران المتراكم على قلب العبد. ولعل التعبير بيكسبون في الآية الكريمة له دلالة علمية عميقة في شمول الكسب لكل أنواع الذنوب الظاهرة والباطنة على السواء والقلب هو مكان الاستجابة مع العبد فكل ران يؤثر عليه، فمنه يخرج منهاج الفطرة الذى ركزه الله تعالى في الإنسان وإليه يتجه خطاب الالتزام. إذا خرج عن منهاج الفطرة، أى أن توجيه الإنسان الذاتى - الفطرى - يأتى من القلب. وتوجيه الإنسان الخارجى يعود إلى القلب، فكان القلب مرآة تشع النور وتستقبله في آن واحد، والقلوب تتفاوت في صفاء مراتبها، وفي مقاومتها للأكدار، فهناك الوين للعصاة. ويسبب الإظلام التام، والغيم للأبرار ويسبب ضعفا جزئيا في الإبصار. وظلالا شفافا على البصيرة، ويبقى الغين وليس له أثر تدركه الحواس، ولا تأثير عليها. ولكن له وجود تستشعره البصائر لفرط شفافية القلب وصفاته.

وهذا يفسر قوله ص: «إنه ليغان على قلبى. وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٢).

هذا الحديث الشريف لا يثبت استعداد النبى ﷺ لفعل الذنوب كما يوهم النص، ولكنه يثبت حرصه ﷺ على حلا، قلبه الشريف بالاستغفار، وتقوية الاستجابة في كيانه الطاهر بالاستغفار.

(١) الإمام النسائى في سنته واللفظ له... رواه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٧٥ خجيث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبي،

ورواه أبو داود في سنته ج ٢ ص ١٧٧ رقم ١٥١٥ نشر محمد على السيد - حمص - سوريا.

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ حديث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبي ١٩٥٥ م.

ويعلمنا أن هناك مجهودا متزايدا متطلب من العبد. لكي يحافظ على درجة من اليقظة تجنبه الغفلة، وما ينتج عنها من مخاطر، ومن بينها عدم التلقى عن الله تعالى، وعن رسول الله ص، والحواس العادية لا تستطيع التلقى عن الله تعالى وهي تعمل مع قلب غافل تراكمت عليه الذنوب فأغفلت منافذ الضوء فيه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن كيفية وصول رسالة القرآن الكريم إلى القلوب: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(١) فهو سبحانه يشترط للاستجابة قلبا طبيعيا لم تعتمه الذنوب يلقي صاحبه السمع ويعيش المعنى بكل كيانه، هذا إذا كانت (أو) بمعنى أما إذا لم تقتضى الجمع واقتضت المغايرة، فيكون القلب المشرق للمؤمن. وعلى غير المؤمن أن يعيش معاني القرآن الكريم حتى يهتدى به، ورقة الأفتدة مستجلية للإيمان دائما.

وغلظة القلوب منافية له، والران هو الذي يفسر لنا معنى غلظ القلب ورقته، ورسول الله ﷺ يربط بين الإيمان ورقة القلب—أى الصفاء من الكد، والنقاء من الران، فيقول: "جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة الإيمان يمان والفقة يمان، والحكمة يمانية"^(٢). وتأتى رقة الأفئدة من ضعف الران، ويضعف الران بسبب اليقظة، وقوة الاستجابة، ويقوى بدونهما.

العلم والاستجابة:

يتكئ كثير من الناس خُداع الران، ويظن أن علمه في أى فرع من فروع المعرفة يجعله لا يخضع لقاعدة الران ودورانها، والغفلة الناتجة عنها، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن كثيرا من الناس أضلهم الشيطان رغم عملهم الكثير وتفوقهم في كثير من المجالات،

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) صحيح مسلم ج١ حديث رقم ٥٢.

فيقول الحق تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَّيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِهِمْ وَزَيْتِ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) (١).

في الآية الكريمة تنبيه على كثرة علم عاد وثمود، أن هذا العلم يظهر لكم من مساكهم وفخامتها. ومع ذلك أغراهم الشيطان على علمهم هذا. وانحرف بهم إلى التيه والضلال. فالعلم مع الغفلة لا ينفع بشئ.

التعريف:

جاء هذا التعريف متأخرا بعض الشئ لضرورة تتعلق بجوهر هذا المقال لأن الغفلة تدرس هنا ليس من الناحية اللغوية، إنما تدرس من ناحية التأثير على جوهرية الإيمان في القلب، ولذلك كانت البداية برصد القرآن الكريم للغفلة. ثم دراسة الغفلة كمرض عضوى، ثم يأتي بعد ذلك التعريف اللغوى ليحدد المعانى المتناثرة وجمعها كغطاء لجوهرية البحث. والغفلة في أصلها اللغوى. ترك الشئ سهوا وربما كان عمدا (٢).

الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

وهذان التعريفان يرصدان كثيرا من المعانى الهامة التى أشرت إلى أنها ستكون عطاء للبحث، وتتممة لمعاينة.

ففى التعريف الأول: ترى أن الغفلة ترك الشئ سهوا وربما عن عمد. وهذا التعريف يأتي بفائدة أن الغفلة لا تتعلق بالسهر فقط بالنسبة للمتروك ولكنها تتعلق أيضا بالمتروك العمد، ومعنى هذا أن النفس تسقط بعض الأشياء سهوا، وبعضها عمدا لداع من الدواعى التى تتراجع لديها.

(١) سورة العنكبوت: ٣٨.

(٢) ابن فارس معجم مقاييس اللغة ج٤ ص ٣

وفي التعريف الثاني: الغفلة: الغفلة سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ^(١). هذا التعريف يقع مباشرة على ماهية الذاتية الغافلة، لأنها حين تتسريل بالغفلة تفقد خاصيتي التحفظ والتيقظ، والتحفظ هو الحرص على كل ما ينفع الإنسان والتيقظ هو الاستجابة ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وحين تفقد الذاتية الغافلة التحفظ تصاب بالعزلة الفاصلة، التي تفصل بينهما وبين الواقع المعاشي جسدياً وروحياً واجتماعياً، ويتوقع الإنسان ويعيش داخل ذاته، وتراه إلى الخارج ويسمع منه، ولكنه لا يتأثر بفاعلياته وآلياته.

(ب) فاعلية الغفلة على الذات:

توهم لفضة الغفلة لأول وهلة أنها اتجاه سلبي، وسلوك عاجز عن الفعل، وهذا النوع من الغفلة ليس أساساً في هذا البحث، إنما الغفلة التي يتجه إليها البحث، وهي الغفلة، التي يغفل فيها الإنسان بشئ عن شئ آخر، وفاعلية الغفلة تعنى السلوك الجديد للذاتية الغافلة، أو السلوك المستبدل ولذلك فهناك مجالات عديدة اجتهد في السير فيها المدعون، وهي ليست وسيلتهم الناجعة، ولا تؤدي إلى هدفهم المنشود.

وحين تبلغ الغفلة بالإنسان مداها، وتجعله ينفصل عن طريقه، ويضل هدفه، "يشعر بحدوث تغيير في ناحية، أو في بضع نواح معينة، من نواحي شخصيته. كما قد يكون شعوراً شاملاً يشعر معه صاحبه بحدوث تغيير شامل، متضمناً لجميع نواحي حياته"^(٢)

الأهداف:

قبل الخوض في فاعلية الغفلة على الذاتية الغافلة تحدد الأهداف التي يذهل عنها الإنسان، وذهوله عنها يفقده التوازن في حياته. فهي أهداف مختلفة عما ألفه البشر من

(١) الراغب الأصفهاني المفردات ص ٣٦٢ طالحلي.

(٢) د. عزيز فريد الأمراض النفسية العصبية ص ٣٨٥ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م.

أهداف، فالأهداف البشرية حيث يترك بعضها الإنسان لا يصاب بشئ كثير من الانعكاس الهدفي والتخلخل الوسىلى.

أما الأهداف التى حددها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش إذا تركها، لأنه فى الوصول إليها سعادة الإنسان أساسا فهو يحصل على الجائزة مرتين، مرة سلك الطريق، ومرة لأنه قد وصل إلى نهايته.

الهدف الأول:

الهدف الأول من وجود الإنسان فى الأرض هو عبادة الله سبحانه وتعالى بمعنى طاعته، والله تعالى لا يحتاج إلى عبادة أو طاعة الإنسان فى شئ. إنما ذلك لمصلحة الإنسان نفسه فكما قلنا من قبل فإن الوسيلة تشرف بشرف الهدف.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦)

الهدف الثانى:

وهو ضميم الهدف الأول: إعمار الأرض، وخلافة الله تعالى فيها، أى على الإنسان فى هذا الهدف تحقيق مشروع الحق سبحانه وتعالى فى الأرض وإثبات استحقيقه للخلافة وليس العكس كما رأى الملائكة فى البداية. ومشروع الله تعالى إذا أخذنا ملامحه من القرآن الكريم فإنه يتكون من إعمار الأرض - نشر العدل فى ربوعها - إتاحة الفرصة الحرة لجميع البشر للدخول فى دين الله تعالى الذى تقره العقول، وتشتاق إليه الفطر.

وعن الهدف الثانى يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١).

هذا الهدف: إعمار الأرض وخلافة الله تعالى فيها يختلف عن الهدف الأول في أنه يحتاج إلى أمة قوية لها بأس شديد، لأن إقامة العدل ودحر الظلم ونشر دين الله تعالى وإفساح الطريق لدعوة الإسلام كل ذلك لا يتم بالقيام والصيام والنوايا الطيبة والدعوات الصالحة، وإن كانت الحياة لا تمضى آمنة ومستقيمة بغير هذه الشعائر:

إنما كل ذلك بالبناء والإعمار والإعداد والبحث عن أسباب القوة في جنبات الحياة. فهدف العبادة يتحقق بتحقيق بالعبادة، وهدف الخلافة لا يتحقق إلا بالسيطرة على أسباب القوة ومعرفة أسرار الحياة.

ومن العجيبى هذا الزمن أن الذين كلفهم الله تعالى بالخلافة ﴿كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) والإعمار تقاعسوا، في الوقت الذى يحاول فيه أعداء الله تعالى خلافته في أرضه، بالعمل المتواصل واستكفاء أسرار الحياة.

الغفلة والعبادة: تدخل فاعلية الغفلة إلى الهدف الأول من طرق كثيرة، منها صرف الإنسان عن روح العبادة إلى رسمها فروح الصلاة تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر، وإقامة ذكر الله تعالى في قلبه، ذكر - وتذكر، وتبعده عن الغفلة - التعلق بشئ آخر - التى تجعله منصرفا عن روحها، وحينما تعلق المسلمون برسوم^(٣) الصلاة دون روحها، ساءت حالهم ولم يستفيدوا من فاعلية الصلاة في المجتمع الإسلامى، وهم بذلك لم يخسروا قبول العبادة فحسب، بل خسروا فائدتها التى من أجلها شرعت وذلك هو الخسران المبين.

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

(٣) لا تغفل حق الرسم في الصلاة - أقوال وأفعال - لأنه = اطارها الذى تتلبسه الروح، فلا يكن الإنسان أن يحصل على روح الصلاة من غير الإحتفاء بإطارها الجميل

فالتاجر يصلى خادما أركان صلاته ولكنه يغش فى سلعته. والسياسى يصلى، بل يببالغ فى صلاته، ولكنه يغش فى أمته، وهكذا: لأن الغفلة ربطت التاجر والسياسى - على سبيل المثال فقط - بالعرض وصرفتهم عن الجوهر، وهذه هى فاعلية الغفلة فى الهدف الأول - العبادة.

الغفلة والخلافة:

كما يذهل العبد عن خوف مقام الرب وتوقيره كذلك يذهل عن دوره فى الحياة، وكثرة المسلمين لا تعرف لها دورا فى الحياة، وربما أجاب أحدهم عن هذا الدور بأنه عبادة الله تعالى، وإذا سألته: هل تنفصل العبادة عن الخلافة؟ أجابك بأنه لا يعرف شيئا عن ذلك، وأنتك تنادى من نكان بعيد، فالخلافة هى وعاء العبادة، وعندما يعمر الإنسان الأرض، وينشر فيها العدل والخير، على وفق شريعة لله سبحانه وتعالى فإنه يكون قد هيا أرضا ومناخا صالحا لعبادة الله سبحانه

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى شعيرة الأذان التى أرتضاها للمسلمين هى: الله أكبر، فهو أكبر، بذاته وجبروته وقهره، هذه حقيقة أساسية، وعلى المسلمين جعل هذه الحقيقة الكبرى واقعا بين الناس، بخشوعهم فى العبادة، وسلوكهم فى الخلافة، إننا يجب أن نجاهد ونبذل العرق والجهد والدم - عند الحاجة - لتكون - الله أكبر - واقعا بين الناس، وهذا هو معنى الخلافة.

وإذا عدنا إلى الذاتية الغافلة رأينا أن أجهزة المسلمين لا تهتم بهذه المعانى، وليس ذلك كفرا وعنادا، إنما ذلك غفلة، فصلت بين القلب ومتابعه، بين العقل وواقعه. فالذاتية الغافلة تخلد فى العبادة إلى الشفاعة والمغفرة، ولا تفعل شيئا تستحق به الشفاعة وتنال به المغفرة، وتركن فى الخلافة الحياة الحيوانية فقط أى الحياة (البيولوجية) ولا تعرف لنفسها هدفا ولا رسالة.

إن واجب الخلافة يقتضى أن تكون الأمة الإسلامية هى أرقى الأمم وأعلاها شأنًا، لكى تقود الناس إلى مرضاة رب العالمين، وعلى كل فرد من هذه الأمة أن يعمل لهذا لاهداف العظيم يتصل بواجب من قريب أو بعيد.

لقد جاء اليهود إلى فلسطين وهدفهم المعلق إقامة مملكة الرب وإنشاء وطن قومي
- غالب - لليهود.

ودارت عجلة الحياة، وعمل الجميع من أجل هذا الهدف الروحي الدنيوي وانتصروا
وانتشرُوا - وهم على باطل - وأصبحوا يهددون أصحاب الحق الأصيل - الوحيد ونحن ننظر
إليهم تتخمنا الحسرة، ويغشانا التساؤل: متى جاءوا؟

كيف استطاعوا تحلية ماء البحر وإخراج المياه من جوف الأرض وزرع الصحراء؟
وأى فرق يسننا وبينهم في الخلق والتكوين؟ لاشئ إلا أن لهم هدفا يسعون إليه ونحن
نعيش من غير هدف يوقظنا للحركة من سباتنا العميق، إن الغفلة طغت على أرواحنا
ف عزلتها عن روحانية العبادة طغت على أرواحنا فعزلتها عن روحانية العبادة عن روحانية
العبادة، وطغت على عقولنا فعزلتها عن فاعلية الخلافة، فالذاتية الغافلة ذاتية مغمورة
بوهم استحقاق النعيم في الآخرة من غير عمل يجلب هذا النعيم، ومطمورة بوهم التفوق
والسيادة من غير كد وجهد وعرق - سيادة العاجزين.

ومن الجائز اطلاق لفظ الذاتية الغافلة على أفراد الأمة فردا فردا، ومن الجائز
أيضا إطلالة على الأمة مجتمعة في انيتها - قصعة الأكلة - فكل فرد لا يعمل لترقية الأمة،
مجتمعون لا يعلمون لهذا الهدف العظيم.

سيكولوجية الذاتية الغافلة:

الذاتية الفاعلة مدعوة وداعية، والذاتية المنفعلة مدعوة وداعية، ولكن الذاتية
الغافلة مدعوة فقط، فهي تحتاج إلى دعوة، إلى إفاقة، فالذاتية الغافلة لم تنته بعد
ولكنها لم تبدأ أيضا، وعلى الدعاة دراسة هذه الذاتية بعناية فائقة، وهمة دافقة، فهي
الأرض التي يجب أن نزرع فيها، ليكون لزرعنا ثمار مثمرة، وقوة فاعلة.

والذاتية الغافلة تختلف عن الفاعلة لعدم وجود المحرك الذاتى وتختلف عن المنفصلة لغياب المستقبل الذاتى، الذى يجعلها تنفعل بما يلقي إليها من كتاب الله سبحانه تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ فهى ذات بين بين، وليس معنى ذلك أنها ذات منافقة، فالذات المنافقة اختارت طريقها ولها خاصتها وخواصها. (إنما البين البين هى منطقة الدعوة فى الذات الغافلة).

وعلى الدعاة أن يخرجوها من هذه المنطقة إلى المنطقة التى تكون فيها فاعلة منفعة، بشرط أن يخرجوا قبلها فهل يستطيعون؟

ج - حصاد الغفلة: (آثارها)

وحصاد الغفلة يشمل من الناحية العملية الناحيتين -العبادة والخلافة فهو فى العبادة يخرجها عن مضمونها ويحولها إلى رسوم هلامية، وفى الخلافة يفسد خططها، ويعكس هدفها، ويجعلها شيئاً أقرب إلى الظن أبعد عن اليقين.

الغفلة والعبادة: إذا أخذنا أركان الإسلام الخمس كمثال لفاعلية الغفلة

وإفسادها للعبادة فسوف نكتشف ما يلى:

١ - الشهادة: - من معانى الشهادة العظيمة يشقها أن الإنسان إذا نطق بالتوحيد فى الشهادة الأولى "فانه لا يقدر الله تعالى فحسب، بل يتفاعل سلوك الإنسان مع معانى التوحيد الكبيرة التى تخلص الإنسان من الخوف من غير الله تعالى، وتدفعه إلى اليقين بتوفيق الله تعالى له فى كل عمل يتجه إليه" وتخلص الإنسان من الشعور بالأغيار وفعاليتها فى الحياة، وتحرر سلوكه من جاذبية السوى، وتجعله ينطلق فى الحياة بشعور عن سحره ما فى السموات والأرض، ويصبح إنساناً كبيراً يعبد ربا عظيماً لا إله غيره، ولا نصير سواه. وإذا نطق بالشهادة الثانية فإنه يمتلئ بالمعانى التى تدور حول شخصية خاتم المرسلين، بنهاية توجيه الحق سبحانه وتعالى للإنسان، ويتمثل فى مخيلته هذا النموذج

الإنسانى الفذ فى طاعة الله سبحانه وتعالى عبادة. وفى بناء الحياة وتطويرها خلافة، فتصبح شخصية الرسول ﷺ بارزة فى نفس الإنسان مشرقة فى سلوكه، موجهة له فى عمله مهينة له فى أملة، نبراسا له فى طريقه مثلاً أعلى فى كيانه، قوة فى بنيانه، أقرب إليه من بنائه.

هذه بعض المعانى الحية التى تواكب النطق بالشهادتين عند المسلم اليقظ، فإذا ما طبقنا عليها قاعدة الغفلة، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المسلمين ينطقون بالشهادتين، وكل منهم لا يعى ما يقول، فتجد الرجل إذا أقبل على رجل آخر له سلطان فى عمله أو ماله، فإنه يردد كلمة التوحيد كثيراً ومع ترتعد فرائضه يقول بلسانه لا إله إلا الله "هذا من الناحية اللفظية النظرية" ولكنه بقلبه ويخشى هذا المخلوق أكثر من خشيته لله سبحانه وتعالى، ونجد إنساناً آخر لا يعتمد فى عمله وسلوكه على الله لكى يريح نفسه من ذلة نفاق البشر، ولكنه يعتمد على الإنسان، بمعنى أنه يبذل جهوداً كبيرة لتحسين علاقته بالناس ولا يبذل مثل هذا الجهد لتوطيد علاقته بالله سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا يفتأ يردد كلمة التوحيد لا إله إلا الله. لا إله إلا الله.

فإذا ما جئنا للشهادة الثانية: محمد رسول الله - وجدنا أن جمهرة المسلمين يصلون على النبى ﷺ عند سماع اسمه. ويشهدون أنه رسول الله ﷺ ولكن كثيراً منهم لا يزيد على هذا التردد اللفظى شيئاً ذا بال، من غير تمثّل لقدوة، أو انتفاع بأسوة حسنة، إنها لغة الغافلين ويستوى التاجر والزارع وعالم الدين فى بعض الأحيان وعند البعض فى كل حين. إنها الغفلة التى طمست معالم شخصية النبى ﷺ العظيمة التى لو تمثّلنا تمثلاً حقيقياً لظللنا أمة السيادة الرائدة والقيادة النافعة.

ولكن أين نحن الآن من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام والأعلام.

٢ - الصلاة: من معانى الصلاة الفاعلة، فاعلية الضبط السلوكى للمسلمين، فهى تمنع فى مجتمع المسلمين، وتجعل شيئاً شاذاً نادراً، وهى أيضاً ذكر لله تعالى، بمعنى التذكر لله تعالى بكل ما يحمل هذا الذكر من هبة ووجل فى قلب العبد المؤمن اليقظ. وهى

تذيب الفوارق النفسية في المجتمع حين ينتظم المسلمون صفا واحدا في الصلاة، إلا أن الغفلة تجعل من الصلاة رسوما مشاكلة وأذكارا ذابلة، وفاعلية خاملة، بل أصبح من الأمور المتداولة على ألسنة الناس، أن يتذكر الإنسان المسلم ما كان قد نسيه إذا قام إلى الصلاة، وكأن المسلمين ينشغلون بكل شئ في الصلاة إلا الصلاة نفسها، ومن هنا تفقد الغفلة من الصلاة فاعليتها الدنيوية والأخروية على السواء.

٣ - الزكاة: والزكاة شرعت لمعان كثيرة منها -إعادة توزيع الثروة في المجتمع المسلم - كي لا تكون دولة بين الأغنياء -ويقصد منها التنمية وليس مجرد الصدقة، وهي شعور بالامتنان من المؤدى لله تعالى، وشعور بالرضا من المؤدى إليه، على إخوانه ومجتمعه، وعلى هذا ففاعلية الزكاة تنشيط للمال في المجتمع، لكي يخدم أكبر عدد ممكن من الناس، ثم إقامة نوع من الترابط والتداخل بين قلوب المسلمين فلا حقد ولا حسد بين فقير وغنى، إنما الجميع يبتغى فضل الله تعالى في العطاء وفي القبول على السواء، والزكاة على وجهها الصحيح اليقظ لا تترك فقيرا في مجتمع المسلمين، وقد حدث ذلك كثيرا في التاريخ الإسلامى المجيد. إلا أن المسلمين عن طريق الغفلة حولوا الزكاة الغافلة إلى صدقات لا لون ولا رائحة، فهى أثواب توزع بغرض المفاخرة، وطعام يؤكل للمتاجرة، وماشية تذبح عند المقابر للمحاجرة، وأحيانا يستدرج بها بعض المحرومين للمفاخرة. وبهذا ضاعت فاعلية الزكاة في مجتمع أحوج المجتمعات الإنسانية إلى فاعلية هذه الزكاة.

٤ - الصوم: والصوم فيه الكثير من المعانى المعروفة للكافة، لكن من معانيه الفاعلة إعادة صياغة إدارة الفرد المسلم، فالصائم المنفعل بالصوم، لا تسقط إرادته أمام أى قوة في الوجود، إلا قوة صانع الوجود، ولا يتخاذل أمام أى شئ من مغريات وشهوات الحياة. لكن الغفلة جعلت منه شيئا أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى تبسيط العزيمة وتفعيل الروح أى جعلها فاعلة منفعة، فكم من صائم لا يعيش صومه، ولا يوقظ يومه، ولا يقلل نومه، وقد تطوع علماء الدين فشرحوا للناس أن الصوم يجعل الغنى يشعر بمعاناة الفقير - وسأل

البعض ولم يصوم الفقير؟، وقال علماء الطب إنه يقوى الجسد، ويظهره من الشوائب، ولا يعلم الجميع أن الصوم يصيغ الفرد ويعيد هيكله الأمة، ودفعها للأمام ولكنها الغفلة:

٥ - الحج: والحج هو السداد في نسيج المسلمين، بمعنى أنه يجدد كل عام الإحساس العام المشترك بين المسلمين وينقل كلمة "أمة واحدة" من محتواها اللفظي إلى جوهرها العلمي، فإذا ما اشتكى مسلم في أقصى الشرق من العالم، تألم لشكواه مسلموا العالم جميعا، ولكن الغفلة جعلت من الحج سياحة للبعض ونياحة الآخرين، إنها جموع محتشدة وقلوب شتى، ودعاء ونداء كيف تجتمع أمة على هذا المستوى الجمعي، ثم لا يهابها عدوا؟

الغفلة والخلافة:

كما ضيعت الغفلة فاعلية العبادة من المسلمين، ضيعت عليهم أيضا فاعلية الخلافة، وإذا بقي من العبادة الرسوم عند كثير من المسلمين، فلم يبق من الخلافة شيئا ذا بال، بل أصبحت الأمة الإسلامية مستهدفة في دينها وأرضها وعرضها وحاضرها ومستقبلها، وليس هذا شيئا قدريا كما يعتقد بعض الغافلين، وبعض الذين يلقون تبعة فشلهم وتكلسهم على الأقدار، بل هي مهمة تركناها، وأمانة فرطنا فيها، وقمة ضيعناها، واستبدلنا الخلود في النعيم عند رب العالمين، بالخلود إلى الأرض. وإتباع الهوى والسعى خلف الأوهام - خلف كل عدولثيم، وأمة كهذه يجب ألا تكرم بل يجب أن نحاكم على تفریطها الشائن فيما لديها، خصوصا الأمة التي قال لها ربها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا»^(١).

والإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمر ثلاثة:

أولها: أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها، جزء من العبادة التي خلق من أجلها. جزء من الكدح الذي يصون نفسه وأهله وشرفه.

(١) سورة البقرة: ٢٩

الثانى: أن الله تعالى لم يخلق الإنسان ويجوع ويعرى، بل خلقه مكرما يحمله ما فى البر والبحر، وأحل له الطيبات، ويسر له الزينة والجمال بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع.

الأمر الثالث: فإن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا ينجح بعيدا عن التفوق المدنى والحضارى.

والأمة الإسلامية كى تكون على مستوى دينها، وكى تنجح فى المحافظة عليه، وكى تستطيع إفهامه للآخرين، لابد أن تكون راسخة القدمين فى شئون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقا فى شتى الميادين "مسموعة الكلمة فى آفاق العلم - العلم - برا وبحرا وجوا... ومن حق الأمم الكبرى - وهى أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية - أن تنظر إلى دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم بريبة أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنسانى"^(١).

ويستمر الشيخ محمد الغزالى بعد أن قدم الأمة الإسلامية للمحاكمة على تفریطها فى الخلافة، وقدم حيثيات هذا الحكم.

يستمر فى عرض أسباب هذا التخلف الحضارى فيقول: (وفى ظنى أن لهذه العلة سببين: أحدهما ثانوى: وهو تغلب طبائع البدو على تعاليم الإسلام. فإن البدو يكرهون الحرف، ويزدرون الصناع، وينظرون إلى الفلاحين نظرة نابية.... وكانوا قديما السيوف من الهند وما جاورها، ليستعينوا بها على الغزو السطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها،... ولا ريب أن لهذه البداوة الغيبية أثرا ملحوظا فى دنيا العرب إلى اليوم.

أما السبب المهم فى التخلف الحضارى: فهو شيوع التدين المزيف، ووقوع الثقافة الدينية إجمالا بين طوائف من ذوى المعادن الرخيصة أو العقول المعتدلة ويغلب على

(١) الشيخ محمد الغزالى - سرتأخر العرب والمسلمين ص ١١٣ ط دارالريان للتراث ١٩٧٨.

هؤلاء التأثر بالزهد الهندي، أو النصراني، والرغبة عن الدنيا، وعصيان نداء الفطرة، والغرام بالمبتدعات، واتهام النزاعات العقلية^(١).

هذا الفهم الأصيل لرسالة الإنسان، الذي استعرضناه في السطور السابقة للشيخ محمد الغزالي هو ما يحتاج إليه الفكر الإسلامي في حالته الراهنة.

لقد ظن الزاهدون أنهم يزهدهم هذا قد ضيعوا الدنيا على أنفسهم وذوئهم، إلا أنهم في الحقيقة قد ضيعوها على أمتهم أيضا، وإذا كان ترك العمل قديما مستساغا، حيث كانت تمطر السماء على الأرض فيخضر العشب وترعى الغنم والقوم يجلسون على ربوة لقرض الشعور ونظم القوافي، فإنه لا يستساغ الآن في وسط هذا الصراع الرهيب بين الأمم، على استشراف الممنازل العالية، وإذلال الأمم المتكاسلة الخاملة الغافلة، لقد أصبحت ذاتية المسلمين في غفلة عما يرادها، أو يراد بها.

الحصاد:

ونتيجة لغفلتنا عن دورنا الحضاري، وخلافتنا لله تعالى في الأرض، فشلنا في الصراع الحضاري، وفي السيطرة على مقدرتنا، وأصبحنا في موقع المشاهد لعدونا وهو يدير شئوننا، ويحدد مصيرنا وأضغاله إطار الفناء النهائي، تشاهد كل ذلك ونحن بفعل الغفلة لا تحيا إلا يومنا، ولا نرى إلا تحت أقدامنا.

إن من ينظر إلى خريطة العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، يراها تنتقص وتنتقص من كل جانب ومع ذلك فلكل شعب مسلم هموم تشغله، وهي هموم لا قيمة لها في معظم الأحيان، بل لكلفة من فئات هذا الشعب ما يشغلها، وإذا دلفت إني داخل بعض الهيئات الدينية ترى الصراع المير من أجل المنصب أو المال، أما قضايا الأمة الإسلامية فسلام عليها إلى يوم البعث العظيم.

(١) المصدر السابق ص ١١٤.

(دخلت القوات البوسنية المسلمة في قتال مستميت ضد القوات المصربية التي تحاصر العاصمة سراييفوا، وسط تحذيرات من احتمال تحول المدينة إلى أكبر مقبرة في التاريخ فقد شنت قوات المشاة الصربية هجوما واسع النطاق تحت غطاء من القصف المدفعى المكثف، على منطقة جبل إيجمان ليلة أمس الأول للإسقاط أقوى معقل للقوات المسلمة.. وبغرب سراييفوا تمهيدا لهجوم شامل على المدينة لدخولها في غضون ساعات تنفيذًا للإنذار النهائى الذى وجهه زعيم صرب البوسنة رادوغان كراديتش لحكومة البوسنة للإذعان لخطة التقسيم، أو إلحاق هزيمة منكرة، وهى ما يعنى تحقيق حلم الصرب بدخول المدينة.

وتعد مشكلة نقص الأسلحة والذخائر في أيدي القوات المسلحة السبب الرئيسى وراء تراجعها أمام القوات المهاجمة، مما يهدد بتحويل سراييفوا إلى أكبر مقبرة في التاريخ... وفي الوقت نفسه أعلنت الأمم المتحدة عن استمرار المليشيات الكرواتية في عمليات التطهير العرقى ضد المسلمين بمدينة "موستار" جنوب غرب البوسنة، ووصفت الأوضاع المستمرة هناك منذ شهرين بأنها أشبه بمذابح يومية لمسلمين على غرار مذابح اليهود في عصر النازى)^(١).

هذه دولة إسلامية تباد، فهل يعيش المسلمون في يقظة لما حدث؟! في نفس الأسبوع الذى نشرف فيه هذا التحقيق عن البوسنة والهرسك كان الجمهور في مصر مشغولا بمشكلة خطيرة ألا وهى تعاقد أحد اللاعبين في أحد الأندية مع ناد آخر، وأصبح هذا الخبر مسيطرا على حياة الناس في أعمالهم وفي وسائل المواصلات، وإذا استعرضنا المشاكل التى تشغل بال باقى الشعوب الإسلامية وجدناها تماثل هذه المشكلة التى شغلت الشعب المصرى، وأنسته أرضه وعرضه فى البوسنة والهرسك.

(١) جريدة الأهرام العدد ٢٨٩٤٢ بتاريخ ٢٠/٧/١٩٩٣ ص ١.

وإذا انتقلنا إلى فلسطين فاليهود يقومون بإبادة شعب، ومحو هويته، ومثل ذلك في الفلبين، وفي الهند، وفي بورما، وغدا في باقي دول البلقان، ولا ننسى ما حدث في الأندلس، وما يحدث الآن بالصومال كل هذا والمظاهرات تقوم في الجزائر ضد الإسلام (لأول مرة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية تنظم في الجزائر مسيرات ترفع شعار لا للإسلام ولا للعربية^(١)).

إن كثرة الهزائم التي يتعرض لها المسلمون الآن والتي سيتعرضون لها في المستقبل القريب تحتاج إلى يقظة وإلى إيقاظ من هذه الغفلة لأننى أخشى أن تستيقظ يوما فلا نجد شيئا نستيقظ من أجله، لقد سقط الاتحاد السوفيتى عدو الغرب التقليدى، ووصفت الاستراتيجيات في الغرب على القضاء على الأمة الإسلامية وهي عدو -ان لم تستيقظ من ثباتها - طبع قياده شبه منزوع السلاح والعدو يخطط ويتربص، ونحن في غفلة أدمناها وتعودناها والحرب القادمة "حرب الحضارات" كما يسميها أكبر أساتذة العلوم السياسية في الولايات المتحدة، ومفهومها هو أن للصراع الأبدى بين البشر هو صراع الحضارات^(٢).

ومن هنا يأتي الصراع القادم بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والمؤلف هو: "صمويل هنتيغتون"

ليست كل هذه المحن التي تتعرض لها الأمة الإسلامية هي التي تثير الدهشة لأنها أمور متوقعة من العدو الذي يعلم أنه لا بقاء له مع أمه رائدة تحكم شريعة الله تعالى في الحياة، أمة لو يفوق أبنائنا من ثباتهم ويخرجون من كهوفهم لسادوا العالم أجمع في عشرات السنين، إنما الذي يثير الدهشة والحزن معا، هو اننا كمسلمين نعيش الحياة

(١) مجلة المختار الاسلامى العدد ١٢٦ يونيو ١٩٩٣ ص ٦١.

(٢) مجلة أكتوبر العدد ٨٧٥ بتاريخ ١/٨/١٩٩٣ ص ١٨.

ببساطة وسلاسة: وقد تحكمت فينا الذاتية الغافلة حتى أصبحنا لا نسمع وقع أقدام العدو. ولا نرى طلائع قواته القادمة إلينا.. إننا نتاجرونكسب ونزرع ونحصد، ونقيم الأفراح بالأسابيع والشهور، ومع ذلك فنحن مقبللون بأسرع مما نتصور - إن بقينا على حالنا هذه من الغفلة - على هوة عميقة يليها الفناء.

الباب الرابع

الذاتية المتضخمة

الفصل الأول

مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى

في هذا الفصل نحاول الإجابة على سؤال محدد للغاية وهو: كيف ولماذا تتضخم الذات الانسانية؟

وللإجابة على الكيف: نعود إلى مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى ونعرضها كما يلي:

أولا فى القرآن الكريم

يوضح القرآن الكريم أن الذات الإنسانية ليست وحدة واحدة تقوم على ركيزة واحدة بل هى وحدة واحدة تقوم على ركائز عديدة منها:

(أ) الروح:

وهى ترى ولا تحدد ومع لا تقوم الحياة بدونها. وهى نموذج للربط الشديد بين عالمى الغيب والشهادة، وقد كلت العقول البشرية وأصابها الإعياء من محاولة استكناه سر الروح فى الذات الإنسانية، ومع كل ذلك فلا حياة للإنسان ولكل الكائنات الحية بدونها. وإذا كنا لا نستطيع الحديث عن ذاتية الروح فإنه من اليسير تشبيهه علاقتهما بالجسد بعلاقة الكهرباء بالأجهزة الكهربائية، فالكهرباء تعطى الحياة للجهاز الكهربى وهى قادمة إليه من خارجه. فإذا ما انسحبت منه تحول إلى جثة هامة وهكذا الإنسان مع روحه قال تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)

(١) سورة الأسراء: آية ٨٥.

فنحن لا نستطيع بعد هذا النص الحديث عن ذاتية الروح وماهية الروح ويبقى المجال متسعا لهويتها

(ب) النفس:

وهي قوة الإختيار في الإنسان وهي مؤهلة لسلوك كل دروب الحياة وملهمة بذلك. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ (١) أى ما تتقى وتفجر به وهو الاستعداد (أى الفطرة) لقوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الَّذِي يُؤْتِي الْقِيَمَ وَلَا يَكْرَهُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٢) وهي تختلف عن الروح، لأن القرآن الكريم والنبى المبين قد بسطا لنا كثيرا من صفات هذه النفس، حتى أصبحت واضحة المعالم ممهدة الصفات.

(ج) العقل:

وهو الفهم وهو ميزان كل الأشياء الداخلية والخارجية للإنسان إلا أنه تتنازعه عدة قوى داخل الذات الإنسانية. ويتحدد موقفه ومكانه على هذا الأساس، فإن انقاد الشهوات الإنسانية وخطط لها كان عقلا شهوانيا وإن غلبته الروح كان عقلا روحانيا.. وهكذا

ثانيا: فى علم النفس

وهناك تقسيم آخر عند علماء النفس المحديين للذاتية الإنسانية، وهذا التقسيم - وإن كان من أبرز التقسيمات - ليس هو التقسيم الوحيد، فهناك تقسيمات عديدة ولكنه أشهرها وأكثرها انتشارا وهو كما يلي:

يقول فرويد إن النفس تنقسم ثلاث طبقات:

١ - عندما يولد الطفل قطعة لحم مزودة بأنواع مختلفة من الدوافع الفطرية يطلق عليها

ال (هى - هو)

(١) سورة الشمس آية: ٧،.

(٢) سورة الروم آية: ٣٠.

٢ - ترى الطفل عندما ينمو ينادى دائما (أنا) أنا الذى يأكل. أنا الذى يشرب أنا الذى يقضى حاجته. وهكذا يتكون عند الطفل (الأنا) ووظيفته 'ما تحقيق رغبات ال (هو) أو كبح جماحه إن كان هناك على (الأنا) من المجتمع الذى يعيش فيه.

٣ - عندما يمتص الطفل من والديه أنواع السلوك المختلفة من أوامرونواهى تتشكل الطبقة النفسية الثالثة وهى (الأنا الأعلى) وهى السلطة الداخلية التى تحكم وتفند وتنتج عن تعليمات الأبوين وآداب الجماعة والدين.

والشخصية السليمة يقوم (الأنا) فيها بتحقيق التوازن بين (الهو) وبين (الأنا الأعلى) إذ كثيرا ما يحدث صدام بين الرغبتين، فإذا احتل التوازن، ولم يستطع (الأنا) التحكم فى هذا التوازن، فإن الشخصية تختل، وقوة (الأنا) ترجع إلى حسن التربية بعد الدليل أو التعخويف، وتكون الثقة بالنفس لدى الطفل. وهكذا نرى أن العقد النفسية تنشأ عندما لا يتمكن الفرد من تحقيق جميع رغباته فى المجتمع فتضطرب (الأنا) إلى كبتها، ومحاولة نسيانها فإذا ما حدث أن تذكرها الفرد يصاب بالإضطراب الداخلى أو الخارجى وهكذا يقع الفرد فى صراع نفسى يؤدى إلى ظهور الأمراض النفسية والعقد المختلفة^(١).

فى الفقرات السابقة قدمنا رؤية علم النفس لمكوناته الشخصية الإنسانية ونحن لا نقرها ولا نرفضها؟ وما يهمنى فيها هو التقسيم: تقسيم النفس أو الذات الإنسانية ومحاولة الوصول لسير أغوارها واستكناه اسرارها.

الشخصية الإنسانية (الذات من الخارج):

من المسلم به أن حقيقة النفس البشرية والشخصية الإنسانية لا تؤخذ من علم النفس ولا يمكن أن تؤخذ كحقيقة ثابتة إلا من كتاب النفس المفتوح، القرآن الكريم

(١) مراد بطرس صالح: على النفس العامص ٤٥، ٤٧٦ ط المكتبة النموذجية ١٩٦٧.

ولكن علم النفس يعالج الجوانب الممكن قياسها من النفس البشرية (إن كثيرا من المعلومات المستفيضة في علم النفس قد جمعت باتباع ضروب البحث التجريبي، وتبدو هذه الطريقة أنها تقدم أفضل الوسائل لتحقيق اكتشافاتنا، إلا أن الثمن الذى ندفعه هو تحديد تطلعاتنا، فتنكمش إلى جزء فقط من الكائن البشرى، ولذلك تعمل على إخماد الإهتمام بالإطار الكلى)^(١).

ولذلك فعلم النفس لا يقدم لنا إلا القشور عن الشخصية الإنسانية، وهذه النتيجة تصل بالبحث إلى التركيز على المعلومات المتوافرة عن النفس الإنسانية في القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيوضح ذلك فيما بعد.

بناء الشخصية:

يركز علم النفس في نظره للشخصية الإنسانية على عاملين هامين:

الأول: مجموعة الموارث التى تنتقل من الآباء عن طريق الجينات الوراثية

الثانى: مجموعة القيم والتفاعلات المنقولة من البيئة الخارجية إلى الإنسان (ينشاء كل إنسان خلال تفاعل القوى الوراثية والبيئية التى تختلف أهميتها النسبية من شخص لأخر)^(٢).

الذاتية والخلق:

عند الحديث عن الذاتية والخلق يدور في ذهن سؤال:

هل الأخلاق هى الذاتية؟ أم أنها من أطروحات الذاتية؟

تقع الإجابة على هذا السؤال من واقع المعالجة الموضوعية له، فإذا كان السؤال عن الذاتية الداخلية كانت الإجابة بالنفى الجزئى لأن الأخلاق علامة على الذات وليست جوهرها لها، وإذا كان السؤال عن الذاتية من تفاعلها الإجتماعية ومفاعلاتها الإنسانية، فإن

(١) د. حلمى المليعى: سيكلوجية الإبداع ص ٢٠٥ ط دار المعرفة النموذجية أسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

(٢) د. حلمى المليعى سيكلوجية الإبداع ص ٢٠٦ ط دار المعرفة الجامعية اسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

الأخلاق عندئذ تكون مظهرا خارجيا مطابقا للذات الإجتماعية. ويحدث الترابط بين الذات والخلق (كثيرا ما يستخدم هذان اللفظان كمرادفين، والواقع أن الخلق اصطلاح تقييبي يشير إلى سمات شخصية معينة، من حيث هي مقبولة أو غير مقبولة اجتماعيا.. أى أن الخلق هو الشخصية مقيمة أخلاقيا أى فى ضوء المعايير والقيم الإجتماعية السائدة فى المجتمع)^(١).
ومن هنا يتضح أن الربط بين الذاتية والأخلاق ليس ربطا نهائيا، لأن معايير الأخلاق سواء كانت دينية أ، أجتتماعية، ليست ثابتة فى كل زمان ومكان، فالناس لا يدينون واحد، والعادات الإجتماعية أبعد ما تكون من الوحدة والثبات.

السمات العامة للذاتية:

نصل فى هذه الفقرة إلى محاولة رصد السمات العامة للذاتية وهى تتكون من عناصر عديدة نجملها فيما يلى:

- ١ - المظاهر الموضوعية للسلوك مثل الخصائص الجسمية والموضوعية كالطول.
- ٢ - العوامل الوراثية التى يحصل عليها الشخص من والديه.
- ٣ - الدين: الذى يعتنقه الشخص يؤثر إلى حد كبير فى ذاتيته إن كان منفعلا به أو متفاعلا معه. أما ما عدا ذلك فتأثير الدين على الشخص يكون تامويا وشكليا فقط
- ٤ - الثقافة: ولا نقصد هنا التعليم المنتظم فقط، بل مجموع الخبرات الاجتماعية والإنسانية مضافا إليها هذا النوع من التعليم المنظم.
- ٥ - النشاط الإنسانى: ذلك العمل الذى يؤديه الإنسان والمركز السلطوى الذى يصل إليه الإنسان عن طريق هذا العمل.
- ٦ - الهويات: وهى مجموع الأنشطة التى يؤددها الإنسان بعيدا عن العمل العادى وقد يكون لهوية من هذه الهويات قوة تؤثر إلى حد بعيد فى ذاتيته.

(١) المرجع السابق ص ٢٠٩.

هذه بعض العوامل الى تؤثر في ذاتية الإنسان وتبقى عوامل عديدة مثل الحوادث الزمنية، وبعض الظروف الإجتماعية والإقتصادية والنفسية والصحية التنتؤثر فجأة على سلوك الإنسان وتحوله من شخص إلى شخص آخر، وتضطره إلى سمات أخرى للذاتية منها:
أ - العدوان المباشر: وهو محاولة الإنسان الإعتداء على مصدر الإحباط كالذى يهيم بقتل رئيسه في العمل لسوء معاملته له ودفعه دوما إلى طريق مسدود.

ب - التعويض: التعويضنوعان: تعويض صرف يحاول الشخص فيه التعويض عن شعوره بالنقص بأسلوب شاذ، تعويض عادى: هو الذى يحاول فيه الشخص نهويض أى نقص فيه بطريقة عادية كالذى يشعر أن لديه نقص في تعلم لغة فيحاول أن يتعلمها.

ج - النقص: يلجأ إليه من يشعر بنقص معين كالتقصير الذى يرافق الطويل دائما.

د - التبرير: يصعب على الشخص أن يعترف بفسله. ولذلك يلجأ إلى تبرير هذا الفشل. وخلق الأعذار لنفسه ولغيره

هـ - الإسقاط: وهو أن يلجأ الشخص إلى إسقاط ما في نفسه على الآخرين فينسب ما يقع فيه. من زلات وأخطاء على الآخرين^(١)

في السطور السابقة بعض السمات العامة؟ للذاتية الإنسانية، عندما ينتقل الإنسان من صورة للذاتية الخارجية إلى ذاتية أخرى.

وعندما نتعرض بعد قليل -للذاتية المتضخمة فلا يجب أن تغيب عنا المعلومات السابقة عن النفس الإنسانية. عوامل تأثرها وسمات تفاعلها - كي تصل بيسر إلى إبراز سمات الذاتية المتضخمة.

وسوف نعالج الموضوع معالجة علمية تستوجب أن تكون البداية بدراسة الذاتية المتضخمة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

(١) د. عباس محمود عوض: علم النفس العام ص ١٥٣. ١٥٤. ١٥٥ ط دار المعرفة الجامعة اسكندرية ١٩٨٦ طبعة ثالثة (نقل بتصرف).

الفصل الثانى

دراسة الذاتية المتضخمة

أولاً: فى ضوء القرآن الكريم:

لعل أول ما يثير حيرة الباحث هو غزارة المادة الخاصة بالذات المتضخمة فى القرآن الكريم، وعدم اهتمام علماء المسلمين بدراسة الذات المتضخمة من خلال المادة الغنية فى القرآن الكريم، والذات المتضخمة يشار إليها فى القرآن الكريم بالكبر والتكبر والاستكبار وكل مادة كبر (أى زاد حجمه).

وقبل أن نعرض لسلوكيات وأنماط الذات المتضخمة فى القرآن الكريم نقول إن النفس البشرية لا تستطيع العيش فى الحياة الدنيا إلا من خلال استقامتها مع فطرتها -أى صياغتها - الأولى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء ٢٨).

فالضعف فطرة وحقيقة فى الإنسان وقوة الإنسان تكمن فى اعتماد واستناده على القوى القاهر سبحانه وتعالى وهذه الفكرة البسيطة هى جوهر قوة الإنسان فى الحياة، وإذا استمد الإنسان قوته من خالقه سبحانه وتعالى أصبح أكبر قوة فى الكون وسخر الله تعالى له كل شئ لأنه وهو يمارس قوته فى ساحة الحياة يمارسها وفق إرادة الله سبحانه وتعالى، وهذا (الوفى) يحافظ على توازن الذات البشرية ويقاوم تضخمها إلا أن الصورة المسجلة عبر التاريخ لنشاط الإنسانى فى الأرض تخالف بنسب متفاوتة ومتعاكسة هذا النهج.

ولقد وصل الإنسان من انفلاته من هذه القاعدة إلى حد دعوة الناس لعبادته هو وسوف نعرض الآن للذاتية المتضخمة في القرآن الكريم لنقف على صراع النفس من ذاتيتها الفطرية وهي تنسلخ منها صاعدة إلى مجد موهوم نازلة إلى سحيق محتوم.

أ - أنماط التضخم الذاتي (دراسة أفقية):

1 - التضخم الحاقد:

تدافع الذات المتضخمة عن فاعليتها بالتحقير من شأن غيرها، فوجود إبليس وأدم في مكان واحد كان وجودا مقبولا طبيعيا ولكن ذات إبليس تضخمت وأصبح وجود أدم معه يمثل له مشكلة فحاول أن يقتلعه من مكانه ولجأ في ذلك إلى طريقين:

الأول: التحقير من شأنه ففرض السجود له بحجة أنه -أى آدم - من طين

الثاني: محاولة إخراجها من الجنة بالإغواء لأنه أدرك أن قوة آدم ستكمن في اعتماده

على الحق سبحانه وتعالى فأراد أن يبعده عن هذه القوة

قال تعالى: "قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيه.. "الأعراف: ١٣

أمره بالخروج من الجنة لأن ذاته تضخمت وفسدت، وبينت الآية أن الذات المتكبرة لا يقف تضخمها عند حد معين وذلك في قوله (تتكبر) لأن في هذه اللفظة تفاعل للتكبر أى تناسى له.

ولذلك فالنتيجة التي سنخرج بها الآن من هذه الآية: أن الذاتية المتضخمة ذاتية

متفاعلة تفاعلا متناميا. ولكنه تفاعل سلبي لا يزيد الحياة إلا تعقيدا وتعتيما.

2 - التضخم في الذات والكفر:

قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٣٤).

وفي هذه الآية نمط آخر للذاتية المتضخمة ذاتية عرفت معرفة جيدة. وعرفت أنه

سبحانه وتعالى واهب الوجود لكل شئ. ومع ذلك أبت أن تنفذ أمره وأستكبرت وتعاليت،

هذه ذاتية إبليس والبحث في قصة إبليس يكشف لنا أن الذاتية المتضخمة تعشق التكبر بل تتلاشى فيه. فإبليس عندما طرده الحق تعالى من الجنة وأعادته، هذا الطرد إلى حقيقة نفسه الضعيفة لم يشأ أن يتوب ويحظى برضا الله تعالى وجنته، بل فضل على ذلك أن يعيش متكبرا متعال.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأعراف ١٣: ١٦).

في هذه الآيات بدت ملامح الذاتية المتضخمة فإبليس يرضى بالطرد من رحمة الله تعالى في مقابل أن يتمتع بتكبره.

نتيجة

هذه القاعدة السابقة في ذاتية المتكبر تساعد على فهم ودراسة أصحاب هذا السلوك، ومن ناحية أخرى تكشف لنا عن القسوة والمعاناة التي يلقاها كل من يتعامل مع أصحاب هذه الذات المتضخمة إلا أن هذه المعلومات تساعدنا إلى من يتعامل مع أصحاب هذه الذات المتضخمة إلا أن هذه المعلومات تساعدنا إلى حد كبير في علاج هذه الذاتية المتضخمة، وإن كانت نسبة النجاح في علاج هذه الحالات ضئيلة جدا وغير مضمونة في كثير من الأحيان.

3- الذاتية المتضخمة والصراع:

يلزم الصراع الذاتية المتضخمة أنى وجدت حتى لكأنه مظهرا أساسيا لها لأن الذاتية المتضخمة لا تكتفى بالتعالى والتعاضم المتنامى داخلها، ولكنها تصنع لهذا التعالى وذلك التعاضم مجالا خارجا عن الذات مطروحا في ذوات الآخرين. وكل صراع سواء كان عاما أو خاصا، فإن للذات المتضخمة وجود فيه إن لم تكن عينه أو هي هو.

وفي صراع الحق مع الباطل في الحياة، أخذت الذات المتضخمة جانب الباطل دائما، لأن الحق لا يناسب طموحاتها ولا يوافق نزعاتها ونزواتها بينما لا تجد في الباطل قيودا ولا حدودا وهذا ما يفسر شغف بعض الناس بالباطل وتنسكهم له والقرآن الكريم يرصد صراع الحق مع الباطل وفي جوهره تكمن الذات المتضخمة المستكبرة أو يكمن فيها ويخرج منها.

أ - قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ (البقرة: ٨٧) في هذه الآية وصف دقيق لصراع النفوس المستكبرة مع النبوة، عبر عنه الحق تعالى أحسن تعبير حين قال: عن علة الإستكبار إن الرسول جاء (بما لا تهوى أنفسكم) لأن النفس المستكبرة كما ذكرنا أنفا لا تجد لها مكانا في ظلال الحق ولا يجتمع شملها إلا في رحاب الباطل.

وعن تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير:

ينعت الحق تبارك وتعالى بنى اسرائيل بالعتو والعناد والإستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم

وهذه الآية تكشف عن نوع من أنواع تضخم الذات. لأن الذات المتضخمة يمكن أن تكون ذات فرد، أو أسرة كاملة أو قوم من الأقسام، وتضخم الذات عند اليهود تضخم قومي عام. فقد تجد عند بعض الأفراد منهم بعض التواضع إلا أنك لا تجد ذلك في سلوكهم في مواجهة غيرهم من الأقسام^(١).

ب - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الجاثية:

٣١) هذه الآية توضح لنا أن التضخم في الذات يؤدي إلى الإجرام والصراع ويبعد بالإنسان عن حقيقته الأولى وفطرته النقية.

(١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج١ ص ١ ط مكتبة الصحابة بطنطا

ج - قوله تعالى: ﴿شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (الأحقاف: ١٠)

- خلاف بين القرآن الكريم والكتب السابقة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، فإذا آمن نفر من بني إسرائيل بالتوراة مثلاً فلماذا يأتي نفر منهم بعد ذلك ويكفرون بالقرآن.

الخلاصة: وأنها الذاتية المتضخمة التي قبلت شيئاً في وقت ما ورفضته في وقت

آخر. وكان سبباً كافياً لنشوء الصراع بين المسلمين واليهود بعد ذلك.

د - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا^(١) وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمُ عَذَابًا

أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٧٣)^(٢).

جاءت الآيه السابقة في معرض التمييز بين الذين وقفوا على حقيقة ذواتهم وعلموا ضعفها، فاستمدوا لها القوة من الله تعالى، وبين الذين الذين تضخمت ذواتهم حتى وجدوا في عبادة الله تعالى ذلاً وهواناً فاستنكفوا ذلك وانفوا منه، ونشأ الصراع بينهم وبين الذين ساروا في طريق الهداية والرشاد.

هـ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(الأعراف: ٣٦). كيف استكبروا عنها؟

القريب للذهن استكبروا عليها وعنها؟ ابن كثير: استكبروا عن العمل بها^(٣). الجالين:

عنها. فلم يؤمنوا بها^(٤).

ما سبق من تفسير لا يوفي الآيه حقها وتميل النفس على ضوء هذه الدراسة إلى أن

”استكبروا عنها“ أى تجاوزها. لأن الآيات ترسم حدوداً للبشر من أجل خيرهم في الدنيا

(١) يستنكف: يتكبر ويأنف.

(٢) تفسير جلالين ص ٩٠ ط دار التراث. القاهرة.

(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٢١١.

(٤) الجالين ص ١٢٧.

والآخرة، إلا أن الذوات المتضخمة تجد في هذه الآيات عشرات أمام انطلاقاتها المخبولة إلى اللامحدود.

وفي هذه الأيام تشاع أقوال في المجتمع الاسلامي تنقل عن البعض ممن يدعون العلم من المسلمين المستغربين يقولون أننا يجب أن نؤمن بالأديان كتراث روحى، ولا نقف عندها إذا أردنا الحركة والعمل في الحياة، هؤلاء هم الذين استكبروا - أى تجاوزها - ونظروا إليها على أنها نظم ساذجة لا تمهض بها حضارة وهم في الحقيقة برؤيتهم هذه يدمرون الحضارة ويزرعون الصراع.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأَنْفُحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾

(الأعراف: ٤٠).

كيف تفتح لهم أبواب السماء؟ لا تفتح لهم لأنهم تجاوزوا كل نظام ضبطه الله

سبحانه وتعالى.

وشتان بين من لا يطبق شرع الله تعالى كلا وخبلا وبين من لا يطبقها لأنها لا تصلح في

نظره، فالأول له رجال والثانى له نكال ووبال.

ز - قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ

ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ

﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ (الأعراف: ٧٥).

بمجرد أن أعلن الذين استضعفوا إيمانهم برسالة نبي الله تعالى صالح عليه السلام،

أعلن الذين استكبروا كفرهم بهذا النبي، وهذا مظهر خطير من تفاعلات النفس البشرية

المتضخمة، فمن يقف على سبب كفر هؤلاء، سوف يتعجب كثيرا ويتحير أكثر لأنه يرى أن

هؤلاء أضاعوا دنياهم وأخراهم بسبب تكبرهم أن يؤمنوا بنبي آمن به الضعفاء من الناس إنهم

لم يرفضوا جوهر الرسالة، ولا نقضوا شرعها إنما تحدد موقفهم على ضوء إيمان الضعفاء.

ومن الممكن أن تنتج بهذه المزايا النفسية التي يرصدها لنا القرآن الكريم فمجال الدعوة الإسلامية الحديثة للموازنة بين استعداد الأفراد لقبول هذه الدعوة أو رفضها، قبل أن نخوض في موضوع الدعوة ونقدم للناس جوهرها. أى يجب علينا أن ندرس البيئة المستقبلية للدعوة والمتقبلة لها. قبل أن نلقى بالبدور في هذه الأرض الجديدة.

ج - قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ لَأُ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨) - هذا نوع من الإستكبار بفرض الصراع فرضا ولا يترك مجالاً للسلام لأنه يطلب من النبى والمؤمنين معه أن يتركوا ديارهم وأموالهم أو يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان، لقد كبرت ذوات هؤلاء حتى ظنوا أنهم بكبريائهم ملكوا الأرض ومن عليها ﴿ مِنْ قَرْيِنَا ﴾ والمهم هنا هو عدم القدرة على التعايش من جانب الذوات المتضخمة مع الغير في مكان واحد، إلا إذا هذا الغير نمطا متكررا، وعند ذلك يدمره ويدمر نفسه أى أن المتكبر يتمنى أن تحاكيه في كل شئ فإذا ما أتقنت ذلك إنقلب عليك مرة أخرى فهو لا يرى إلا نفسه في الوجود. لان ذاته تتضخم حتى تلتهم، وهذا من واقع خياله المريض.

ط - قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ هَدَيْنَاكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٢١) - تختلف لغة الذات المتضخمة عن غيرها من الذوات، فعندما يتجه الضعفاء باللوم على الذين استكبروا.. يقولون لهم ﴿ لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ هَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى أنهم يعتبرون أن طريق الإيمان يجب أن يمر من خلالهم هم - أى من خلال ذواتهم - فهم يجعلون من أنفسهم مصدرا للهداية ومهبطا للوحى والتلقى وكل ذات متضخمة دأبها هذا النمط من السلوك وبعض الناس يتصورون أن الإيمان لا يأتى للناس إلا من خلال مكاشفتهم والهلماتهم وظنونهم مع أن سلوكهم لا يتسق كثيرا مع ما يرضى الله تعالى ورسوله ﷺ

—وبعض الناس يكتشفون في نهاية الطريق أنهم آمنوا بذواتهم كثيرا وآمنوا برهيم قليلا، وأحلوا قومهم دارالبوار.

تنوع الصراع

ويستمر الصراع في الأرض بسبب تضخم الذات البشرية، وفي حلقة من حلقات هذا الصراع يقف المشركون أمام رسول الله ﷺ ويعلنون موقفهم من دعوته والذي ينم عن ذواتهم المتضخمة المتعالية فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

تصور هذه الآية جانبا تضخم الذات البشرية وما ينتج عن هذا التضخم، فبالنسبة للتضخم (استكبروا في أنفسهم) أى أن الاستكبار حدث في داخل الذات، أى تضخمت ذواتهم من الداخل لأن التضخم لا يظهر على الذات من الخارج إلا في صورة أعراض شكلية تنقلب إلى أعراض لازمة مع الوقت وبالنسبة لما ينتج عن التضخم تقول الآية الكريمة «وعتوا عتوا كبيرا» فقد وصف الفعل ﴿وَعَتَوْا﴾ بالكمية فجعلها ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^(١).

ولعل الأستاذ سيد قطب من بين المفسرين الذين فطنوا لموضوع تضخم الذات، فعن هذه الآية يقول: (لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم فاستكبروا وطفغوا طغيانا كبيرا، لقد تضخم

شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا، لقد عادوا ما يحسون حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزنا صحيحا، لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت حتى ليحسبونهم شيئا عظيما في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله، ليؤمنوا ويصدقوا)^(٢).

(١) العتو: هو الاستكبار ومجاوزه الحد (المعجم الوجيز ص ٤٠٦).

(٢) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٥٥٨ ط دار الشروق ١٩٨٢ م.

ولقد وضع الأستاذ سيد قطب يده على نقطة الضعف في الذات البشرية حين تتضخم.. وتنطلق خارج حدودها الطبيعية وتتجاوز الرسول ﷺ وتطلب رؤية الله تعالى من غير واسطة، وبرغم إختفاء الكثير من ألوان الشرك، إلا أن رؤية الله بطريق المكاشفة ما زالت تمثل أملا بالنسبة لكثير من الناس لقد طلبها المشركون عن كفر، وهؤلاء يرجونها عن حب، ولكن تضخم الذات هو القاسم المشترك عن الجميع فلا يطلب رؤية الله تعالى في الدنيا من يستحضر عظمته تعالى في قلبه ولكن يطلبها من يستحضر عظمة نفسه ولا شئ غيرها

لا إله إلا الله:

قال تعالى: «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أننا لتاركوا آلہتنا لشاعر مجنون» الصافات ٣٥، ٣٦

إن لا إله إلا الله تصيب أصحاب الذوات المتضخمة بنوع من رد الفعل المعاكس لأن الكون كله يتلاشى في لا إله إلا الله، وهم يرفضون هذا التلاشى القوى، فالذات المتضخمة لا ترى شيئا يحدها، ناهيك عن شئ تتلاشى فيه، ولذلك ينقلبون - في مواجهة هذا الموقف - بالسب والعتل لرسول الله ﷺ ويقولون كيف نترك آلہتنا (لشاعر مجنون) فهذا موقف آخر من مواقف الصراع التضخى في القرآن الكريم.

تعدد التضخم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥).

هذا لون من التضخمية يقترن بالمجادلة في آيات الله تعالى بغير دليل يستحق أصحابه بسببه مقت الله تعالى، ومقت الذين آمنوا، ولكن الله تعالى يخبرنا بطبيعة هؤلاء بأنهم مطبوعين على هذا التكبر المقيت.

قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(النحل: ٢٩)..

فهؤلاء المتكبرين لهم مكان البئس الحقير المستقذر، جزاء تكبرهم في الحياة الدنيا.

ويقول: ﴿الَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠)

ويقول: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(الزمر: ٧٢)

ويقول: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(غافر: ٧٦)

ويقول تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن إِيحَادَى الْأُمَمِ

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٤﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ (فاطر ٤٢، ٤٣)..

فالبداية كانوا ينتظرون النذير ويباهون بهذا الانتظار أنهم الصفوة التي تتطلع إلى

الفجر الجديد، فلما جاء الضياء كانوا أول من حاول إطفاء، وإخفائه فالذات المتضخمة

تستكبر حتى على أملها، وتستعلى على هدفها.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا

ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح: ٧)

في الآية السابقة صفة لازمة للذات المتضخمة وهي (مقاومة الحقيقة) فنبى الله تعالى

نوح عليه السلام يدعوا قومه إلى معرفة الله تعالى، ومع أن ذلك يحقق لهم السعادة في

الدنيا والآخرة إلا أنهم يهربون منها - من الحقيقة - ولكنهم لا يتركون للحقيقة لحظة واحدة

يتفحصوها ولكنهم يضمون ثيابهم على أعينهم ويجعلون أصابعهم في آذانهم قبل أن يولوا

مدبرين (فان لم يستطيعوا الفرار). لأن الداعية واجههم مواجهة. وتحين الفرصة ليصل

إلى أسماعهم بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم وأصروا على الضلال واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى واصرارهم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز في وضع الأصابع في الأذان وستر الرءوس والوجوه بالثياب والتعبير يرسم بكلماته صوره العناد الطفولى الكامل.. فأذاتهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع ولكنهم يسدونها بعنف بالغ كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في أذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليهما بتاتا، وهى صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية أطفال البشرية الكبار^(١). يرسم المؤلف صورة صادقة للنفس المتكبرة المتضخمة إلا أن الجديد الذى أضافه هو وصف الذات المتضخمة بأنها تعانى من طفولة بدائية وهو بذلك يضع يده على جانب من جوانب الذاتية المتضخمة.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٦)

فى هذه الآية صورة من تفاعل الذاتية المتضخمة، فى هنا لا تهرب من الحقيقة كما فى الآية السابقة، ولكنها تقاومها، لأنها تستجلب كل الثقافات والأفكار، وتطرحها بديلا عن شرع الله سبحانه وتعالى، ثم تعقب ذلك بالسخرية من شريعة الله سبحانه وتعالى، ولكنها تعانى من الضيق والغىظ حين تضطر إلى سماع آيات الله تعالى سماعا مباشرا.

قال تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(الجاثية: ٨).

وهذه حالة أخرى من حالات الذاتية المتضخمة.. فصاحب هذه الذاتية يجلس لسماع البراهين الربانية ويدور بداخله صراع عنيف بين الإذعان للحقائق والإمعان فى

(١) المرجع السابق ج٦ ٣٧١٢.

الضلال ولأن الحقائق لا تناسب ذات المتكبر، فإنه يصبر على البقاء على حالة وكأنه لم يسمع شيئاً يتلى عليه. (يسمع آيات الله تتلى عليه) أى تقرأ عليه (ثم يصبر) أى على كفره ووجوده استكباراً وعناداً ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

مقاومة الحقيقة:

قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢)

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ (المنافقون: ٥)

وقال تعالى: ﴿فَدَكَاتْ ءَايَاتِي نَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ﴾

(المؤمنون: ٦٦، ٦٧).

الآيات السابقة توضح الكيفية التي تتم بها مقاومة الذات المتضخمة للحقائق إنها محاولة مصرة بل مسرفة في الإصرار لرفض الحقيقة رفضاً تاماً.

(إننا حين نعرف الحقيقة مسبقاً ولا نكون مستعدين للاعتراف بها، إنما نعاني مرضاً في الروح، وتشاؤماً عميقاً يهدد كامل المجتمع)^(٢).

فهذا الموقف الذي تتخذه الذات المتضخمة من الحقيقة ليس موقفاً عنادياً كما يبدو من أول وهلة، إنه موقف يعبر عن مرض في الروح، وتضخم في الذات ويصف الله سبحانه وتعالى هذا المرض بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ (غافر: ٥٦)

(١) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ١٤٨.

(٢) جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد ج٣ ص ٢٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ترجمة د/ صالح جواد الكاظم.

فهذه الآية الكريمة تجسم هذا المرض من خلال الصورة التى ترسمها الكلمات وتظلها المعانى.

فائدة

والفائدة التى سنخرج بها من تحليل الذات المتضخمة هى أنها ذات مريضة تجب معالجتها، أو محاصرتها إن لم يجد العلاج ويصف كثير من العلماء النفس هذه الذات بإنها ذات هستيرية (تتميز بعدم النضج والتمركز حول الذات فى هذا الحديث والمظهر..)^(١) إنها ذات تدور حول نفسها وتفقد شيئاً فشيئاً اتصالها بالواقع، بل تتعكس معه فى كثير من الأحيان، إنها تستشعر أن العالم خلق خصيصاً من أجل أن توجد فيه هى، فهى أكبر من الزمان والمكان والواقع والخيال. أنها هى ولا شئ غير ذلك. إنه حلم هستيرى يقاوم الواقع، وينهار أمامه عند نهاية الطريق.

ب - درجات التضخم الذاتى (دراسة رأسية)

فى الصفحات السابقة قدمنا صورة أفقية للذات المتضخمة من خلال عرض القرآن الكريم لها. وعلى الصفحات التالية تقدم دراسة رأسية لهذه الذات. وتفرض علينا واقعية البحث الرأسى أن تختار شخصية واحدة تضخمت ذاتها ونتابع تضخم هذه الذات، وأعراض هذا التضخم من خلال عرض القرآن الكريم لهذه الشخصية.

ومن المؤكد أن شخصية فرعون هى الشخصية التى تضخمت ذاتها ووصلت إلى النهاية فى هذا المجال، حتى أعلن على الناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ولذلك فدراسة هذه الشخصية تفيد الباحثين فى ميدان النفس البشرية فائدة جمة لأنها صورة صادقة معبرة عن واقعها وعن مرضها على السواء.

وسوف نحدد ملامح هذه الصورة من خلال عدة مواقف قرآنية متتابعة.

(١) د/ عبد المنعم الحفنى: موسوعة علم النفس والتحقيق النفسى ج٢ ص ٣٧٣ ط: مكتبة مدبولى ١٩٧٨م.

الموقف الأول: بداية الفاعلة للتضخم:

لم يقدم القرآن الكريم صورة مفصلة عن حياة فرعون.. طفولته وشبابه.. وكهولته.. لعل مرجع ذلك إلى أن هذا الجزء من حياة فرعون غير فاعل في سباق القصة وغير باعث على تكوين العبرة، أو أن فرعون في فترة شبابه وقبل أن ينصب فرعوناً لم تكن ذاته تضخمت بعد، أو أن القرآن الكريم أراد أن ينقل لنا صورة عن فرعون واحد يتشابه مع عشرات الفراعين ولذلك سنبدأ بالعرض الأول لصورة فرعون في القرآن الكريم.

البداية الفاعلة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

هذه بداية قوية لقصة فرعون المتعالي، وهي بداية تشتمل على الأسس التي تكونت منها شخصية فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تكبر وتجبهر وطفى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف قيماً يريد من أمور دولته ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم/ هذا وقد سلط عليهم ذلك الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعبته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً.^(١)

كل ما حدثنا عنه هذه الآية الكريمة من أفعال تعتبر عرضاً لمرض فرعون بالتضحية والحقيقة أن تضخم الذات ليس مرضاً نفسياً في بدايته – لأنه موجود عند كثير من الناس ولكن بنسبة غير مرضية - إلا أنه يتحول مع الوقت إلى مرض عضال لا علاج له بالقضاء على صاحبه، ففي بداية الأمر تفقد الذات المتضخمة شيئاً فشيئاً القدرة على معايشة الواقع، ثم بعد ذلك تتمركز حولاتها، وتصاب بهوس العظمة (وهوس العظمة: هو تعظيم

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص ٣٧٩ ط مكتبة الصحابة - طنطا.

الذات وتضخيمها بشكل مرضى يؤدي إلى إصابة الفرد بأوهام العظمة. بسبب تلف القدرة على إختيار الواقع.. ومن ثم تتضخم اتة بشكل مبالغ فيه. وتستحيل هى إلى كل عالمه^(١) هذه السطور تساعدنا على فهم شخصية فرعون فى المرحلة التى سبقت عرض الموقف الأول من القصة فى القرآن الكرىم ولكن يجب لفت النظر إلى براعة القرآن الكرىم فى العرض، فبرغم جمال اللفظ ودقة المعنى إلا أن البعد العلى فى غاية الوضوح، لأن تضخم الذات دائما وفى كل زمان يكون على حساب ذوات أخرى مستضعفة.

ولذلك فالقرآن الكرىم يقول: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ هذا هو الخبر الأول، والخبر التالى له مباشرة هو ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فهناك تلازم يشبه تلازم المقدمة والنتيجة. ويمكن استنباط خاصية أخرى للذات المتضخمة، وهى خاصية اختزال كل الذوات المجاورة فى ذات المتدخم بمعنى أن الرجل حين يكون، متسلطا متضخم الذات فى بيته فهذا التضخم يخصم من كل ذات فى الأسرة فلو افترضنا أن كل فرد فى الأسرة له مساحة تضخمية قدرها عشرة أمتار فإن الأسرة التى عددها خمسة أفراد يكون حجم تضخمها العام خمسين مترا فإذا تضخمت ذات من هذه الأسرة وسيطرت وأخذت هذه المساحة (خمسين مترا) فإن نسبة التضخم لكل أفراد الأسرة تصبح صفرا، لأن الذات السوية ذات متفاوتة متفاعلة مع الآخرين بينما الذات المتضخمة تضر الآخرين وتعقد حياتهم (إن الشخص السوى هو الذى

يعمل للآخرين ويوجههم ويسعى لخيرهم وهو الشخص الذى يمكنه أن يهتم بمساعدة الآخرين، وأن يكون معهم علاقات شخصية وعاطفية وثيقة وعلاقات مبنية على الإهتمام والرعاية، وليس على مجرد الرغبة فى التعالى أو ممارسة السلطة)^(٢).

(١) موسوعة علم النفس ص ٤٤٥.

(٢) د/ فرج عبدالقادر طه سيكولوجية الشخصية المعروفة للإنتاج ص ٢٧ ط مكتبة الخانجى. القاهرة ١٩٨٠ م.

ومن هنا تأتي خطورة الذات المتضخمة لأن ضررها لا يتعلق بصاحبها فقط بل هو في الأساس ينصب على الآخرين

الموقف الثاني: التدرج في التضخم:

من المؤكد تاريخياً أن المصري القديم من الفراعين كان يبدأ حياته عاديًا ثم ينصب في وقت ما ملكاً وإلهاً وحاكماً على المصريين. ولذلك فتضخم الذات تضخماً متدرجاً فهو في بداية الأمر يقبل المناقشة والبحث في الكون عن إله غيره ولكنه في النهاية يصل إلى درجة الجزم بأنه هو الإله الأعلى.

فمن المرحلة الثانية (محاولة البحث) يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ۚ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ۗ ٥٠ ﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۗ ٥١ ﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ۗ ﴿ (طه ٤٩ - ٥٢).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ ٢٣ ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّكُمْ مُّوقِنِينَ ۗ ٢٤ ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ۗ ٢٥ ﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأُولِينَ ۗ ٢٦ ﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۗ ٢٧ ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۗ ٢٨ ﴾ (الشعراء ٢٣: ٢٨).

بعد هذه المناقشة اهتزت ثقة فرعون في نفسه وأدرك أنه ليس بإله لأن سيدنا موسى عرض عليه وعلى قومه صفاته الإلهية من خلال تفاعل القدرة الإلهية في الكون - السموات والأرض، المشرق والمغرب - وفرعون ذرة من ذرات هذا الكون، ولكن موسى عليه السلام بهذه الحجّة القوية، وأن يحاصر هذه الذات المتضخمة بعد أن حوصرت من الداخل. وفي محاولة الدفاع عن هذه الذات المتضخمة لجأ فرعون إلى طريقتين: الطريق الأول تسخير سلطته واستعمال قوته لأنهاء هذا الموقف ﴿ قَالَ لِيِنِ اتَّخَذَتِ الْإِلَهَاءُ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۗ ٢٩ ﴾ (طه: ٢٩).

وعلى مر العصور وكر الدهور ما زال صاحب الذات المتضخمة ينهى مناقشته بهذا الأسلوب إذا استشعر أن الخصم يلجئه للحق.

الطريق الثانى: محاولة البحث فى الطبيعة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧).

إن التضحية عند فرعون هيات له صورة الإله مثل صورته هو أو أكبر، أو مثلها ولكن فى مكان بعيد، ومن هنا بدأ يتخذ أسبابا مادية لمشاهدة الإله الذى حدثه عنه موسى عليه السلام، ومن الممكن أن يكون فرعون مدركا تماما أنه لن يستطيع رؤية الإله. ولكنه لجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة ليخبر الناس بعد أن ينزل من فوق هذا الصرح، أنه لم ير إلها قط، وأن موسى عليه السلام كاذب فيما ادعاه: ﴿ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ يا هامان ابن لى بناء عاليا لعلى أبلغ به أسباب السوات لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ هكذا يموه فرعون الطغية ويحاو ويداوور كى لا يواجه الحق جهرة. ولا يعترف بدعوة الوحداية التى تهمز عرشه. وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه. وبعيد عن الإحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه وبعيد أن يكون جادا فى البحث عن إله موسى على النحو المادى الساذج.

وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا القصور، إنما هو الإستهتار والسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبيت من جهة أخرى وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن، فى حديث الرجل المؤمن، وكل هذه الفروض تدل على اصراره على ضلاله، وتبجحه فى وجود، ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو مستحق لأن يصد عن السبيل، بهذا المرء الذى يميل عن الاستقامة،

وينحرف عن السبيل، ويعقب السباق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ﴿١٧﴾ إذن ليس هناك موقف واضح من داخلية فرعون. هل كان يدعى الالهوية عن اعتقاد، أم أنه كان يخادع كعادة المتضخمين كعادة المتضخمين دائما في كل زمان ومكان؟

الموقف الثالث: الادعاء المتضخم:

قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ١٧: ٢٤).

هذه الآيات تصور الإرتباك الذي وقع فيه فرعون، عندما واجهه موسى بهذه الحجّة القوية (الآية الكبرى) وبرغم هذا القدر الضخم من التلطف في الدعوة (هل لك إلى أن تزكى) هل ترغب في التطهر الجسدى والروحي والأخلاقى وفي كل شئ، إلا الحجج المتخفية تحت هذه الكلمات اللطيفة أربكت فرعون، ولذلك قام بثورة سريعة قوية لمواجهة هذه الحقيقة وربما ينبئ هذا الإبقاء السريع في رد الفعل إلى أن فرعون لم يكن يعتقد أنه إله حقيقى ولكنه كان يعتقد أن لعظمة ميرات لأسرته مدى الحياة، ورمز هذه الحقيقة عند الناس، هو الالهوية لمدعاة.

الموقف الرابع: الفرق فى التضخم:

قال تعالى: ﴿وَجَوْرَنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَكْفُرُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس ٩٠، ٩١).

الحديث عن خطورة الذات المتضخمة على الناس حديث ميعاد، ولكن هذه الآية الكريمة تصور خطورة الذات المتضخمة على صاحبها فما هى تضخمت حتى ضاق عليها

الكون فى داخل صاحبها وادعى بها الألوهية وهى نفسها التى أردته غريقا وهو يعدو خلف مخلوق مثله.

ولكن المهم لنا فى هذا البحث أن هذه الآية تؤكد أن فرعون كان يعرف الحقيقة ويعرف أنه ليس بإله ولكنه خادع للنهاية ولذلك يقول الحق تعالى (ألان)؟ هذا الإستفهام يؤكد أن فرعون كان يعرف الإله الأعلى قبل الغرق ولكنه غرق فى التضخم حتى غرق فى البحر.

ثانيا: فى ضوء السنة النبوية الشريفة:

تواكب السنة الشريفة فى بلورتها للذات المتضخمة القرآن الكريم وتوضح ماهية هذه الذات على نفس النسق القرآنى. ويصل النبى ﷺ - إلى عمق أسرار الذات المتضخمة، ويوضح للناس سماتها العامة.

ويخبر ﷺ - عن علاقة هذه الذات بالحق سبحانه وتعالى فىقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل حواظ مستكبر"^(١) رواه البخارى فى هذا الحديث اشارتان على سبيل الإجمال:

الإشارة الأولى: تتجه إلى صفات النفس السوية وهى النفس التى تشعر بالضعف منها قوبى مكانها وعظمت مكانتها فى الحياة لأن الضعف فى الحديث ليس هو الفقر كما يتبادر إلى الذهن. وإلا لأصبحت الجنة حكرا على الفقراء ومنهم من ضيع نفسه وأمته، وهو يبحث عن غير سبيل الرشاد فالضعف فى الحديث الشريف شعور يعبر عن حالة لا حالة تعبر عن شعور.

إنه العودة إلى الفطرة التى تستشعر جلال الله تعالى. وعظم خلقه وتبصر مكان الإنسان ومكانته فى كون الله تعالى العظيم. ومن هنا تصل إلى أحكام صائبة على أمور

(١) فتح البارى ج١ ﷺ ٥٤ دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ

صحيحة. وهناك ينتقى الغرور وتختفى الشرور وتشرق النفس بنور ربها، ثم تستمر النفس في هذا الطريق طريق الضعف وكأنها تؤدي تمرينا دائما على هذه الحالة عن طريق الخشوع القلبي فيتحول العبد من ضعيف إلى متضاعف ويستحق بذلك الجنة لأنه عاش عبدا ولقى ربه كذلك.

الإشارة الثانية: وهي تتعلق بصفة أهل النار وهي: أن يكون الإنسان عتلا وجواظا ومستكبرا لأنه إذا كان الشعور بالضعف يصحح خطوات العبد بين أفنان المعاصي والشهوات، فإن الإستكبار يظلم فطرة العبد، ويذهب ببصيرة النفس ويسد على العبد كل طريقا إلى الرشده، وكل سبيل إلى الخير، لأن الأستكبار يجعل العبد يقوم بدور غير الدور الذى خلق له. وينزع عنه ثوب العبودية ولا يمنحه ثوبا آخر يرتديه، بل يتركه يبحث عن أردية لاحصر لها. ويظل عاريا عن حقيقته ومفهوم ذاته، ولذلك: فقد اعتبر تضخم الذات مرضا عصى العلاج بعيدا من الشفاء وتصبح - أى حركة للذات المتضخمة طريقا إلى مقت الله تعالى سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول النبي ﷺ "لا ينظر الله إلى من جرثوبه خيلاء"^(١) رواه مسلم.

يرصد هذا الحديث حركة جر الثوب خيلاء كدليل على تضخم الذات مع أن إرتداء الثوب الجميل الحسن من غير خيلاء لا يضر كما سنرى في الحديث التالى

قال ص: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". فقال رجل^(٢): ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسنة؟ قال: "إن الله جميل يحب الجمال - الكبر: بطر الحق وغمط الناس"^(٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج٤ ١٤ ﷺ ٦٠ مكتبة الغزالي دمشق. بدون.

(٢) هو مالك بن مرارة البؤهاوى دليل المعالين ج٣ ﷺ ٦٧ ط دار الفكر. بدون.

(٣) رياض الصالحين ﷺ ٢٧٦ طالحلى. بدون.

فى هذا الحديث يوصد رسال الله ﷺ أبواب الجنة فى وجه من كان فى قلبه ذرة من كبر، ولذلك كانت دهشة الصحابة عظيمة حتى استفسر احدهم عن هذا الكبر الذى يحرم العبد من الجنة، أهو شعور الإنسان بالسعادة والغبطة حين يلبس الثوب الحسن، وهو شعور فطرى طبيعى إنه ليس كذلك مع ما يدخل النفس من شعور بالعزة والإمتياز عند ارتداء الملابس الجميلة الغالية، وقد يصاحب ذلك شعور بالتكبر عند بعض أصحاب النفوس المضربة ولكنه شعور غير أصيل لا يلبث أن يزول وتعود النفس إلى صفوها، وتستلهم رشدها غير بعيد، أما الكبر الذى يحرم صاحبه من الجنة فهو بطر الحق بمعنى طمسه وقطعه ونكرانه، وغمط الناس، أى عدم إعطائهم حقهم بتقدير جهدهم أو احترام مكانتهم، وهذان عرضان من أعراض المتضخمية فى الذات، لأن الذات المتضخمة ترى فى الحق عدوا لها، لأنها ركبت طريق المخالفة، وسارت عليه، وبنّت مجدها الوهى على جنباثة فكيف لها تبصر طريق الحق أو تدعن لفروضه، وهى ذات تغمط الناس جميعا

لأنها تريد أن توسع لنفسها مكانا يستغرق الكون كله لا يجاورها فى هذا المكان أحد، فهى وحدها معبودة ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(١) أو عابدة فهى تستحق المكاشفة والإلهام والتوفيق والمعرفة وغيرها من البشر فى عداد الحيوانات الدراسة. تلك هى بعض صفات الذاتية المتضخمة فى بعض أحاديث الصادق الأمين المصطفى ﷺ.

(١) سورة القصص: ٣٨.

الفصل الثالث:

تضخم الذات عن الغزالي:

للإمام أبي حامد الغزالي بحث قيم في تضخم الذات الإنسانية من خلال الكبر والعجب ضمنه كتابه إحياء علوم الدين^(١)، ويعتبر هذا البحث من المباحث العلمية التي سبقت في فهم وتشخيص فعاليات الذات المتضخمة وإذا استثنينا بعض الأدلة الضعيفة في هذا البحث فإنه لا غنى بعد ذلك لمن أراد أن يتحدث عن الذاتية المتضخمة.

يقول الإمام الغزالي:

(الكبر والعجب داء ان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بعيضان..)

وقد ذم الله تعالى الكبر كن كتابة، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ "سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق.. " (الأعراف: ١٤٦).

وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥).

(١) ويرغم جودة هذا المبحث حول تضخم الذات إلا أننا يجب أن ننتبه إلى عدم التسليم بكل ما جاء في الأحياء للأسباب الأتية:

- أ- أنه من الكتب التي في الدعوة إلى الذهب في المال والعمل وهما من أهم مقومات الحياة الناجحة للأمم.
- ب- أن كثيرا من مرويات الأحياء تدور بين الضعف والوضع مما يزيد صعوبة الاستنتاج العلى الصحيح.
- ج- أن هذا الكتاب وإن عالج بعض أماض الأمة في فترة من تاريخها إلا أنه لا يناسب الأمراض الأنبيه

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

وبعد ذكر هذه الأدلة وغيرها من الحديث الشريف

والآثار تأتي بقول النعماني بن بشير (ان للشيطان مصالى وفخوخا وأن من مصالى الشيطان وفخوخه: البطر بأنعم الله تعالى، والفخر بإعطاء الله تعالى، والكبر على عباد الله تعالى واتباع الهوى في غير ذات الله تعالى)^(١).

قدم الإمام الغزالي في هذا الجزء من المبحث موقف الذاتية المتضخمة من العقيدة ووضع يده على تشخيص - سلوك المتكبر والمعجب، وذلك في قوله "والمتكبر والمعجب سقيم مريضان" وهو ما تهدف إليه في البحث من اعتبار تضخم الذات مرضاً، يجب دراسته وفهمه ومحاولة فهمه ومحاولة علاجه على هذا الأساس وليست المسألة موقوفة على ضعف وقوة الإيمان فحسب، بل مستخلصهم من عوامل عديدة ومؤثرات كثيرة.

محاصرة الذات:

يحاول الإمام الغزالي محاصرة الذات المتكبرة والإلمام بها من خلال نقله لأقوال العلماء وهو ينتقى هذه الأقوال بحيث يجعلها تجمع بين التنوع والشمول فيقول (وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو زيد. مادام العبد يظن أن في الخلق من هو أشرم منه فهو متكبر فليل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حال - وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته لنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن معرفته بربه عز وجل ومعرفته لنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه.

(١) أتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج. ١٠، ٢٢٨ ط ٢٤٤٣ ط دار الكتب العلمية بيروت.

وقال عروة لن الورد: التواضع أأء مصائء الشرف؁ وكل نعمة محمود علمها صاحبها إلا التواضع.

وقال يحيى بن خالد البرمكى: الشريف إذا تنسك تواضع والسفينه إذا تنسك تعاضم. وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذى التكبر عليه بماله تواضع.

ويقال لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل. ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل. ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل. ولا ربح لمن ابتاع نفسه لله عز وجل وقال أبو على الجوزانى: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد؁ فمن أراد الله تعالى هلاكه؁ منع منه التواضع والنصيحة والقناعة؁ وإذا أراد الله تعالى به خيرا؁ لطف به فى ذلك؁ فإذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصر الله تعالى؁ وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل.

وعن الجنيد أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلة: التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها؁ الموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبه قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغله وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكننت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر؁ طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأأمله فقال لى: مالك تنظر لى؟ فقلت له: شهيتك برجل رأيتهمكة ووصفت له الصفة؁ فقال له: أنا ذلك الرجل؁ فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: لنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس؁ فوضعنى الله حيث يترفع الناس..

وتفاخرت قريش يوما عند سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال: (لكننى خلقت من نطفة قدرة؁ ثم أعود جيفة منتنة؁ ثم آتى الميزان؁ فإن ثقل فأنا كريم؁ وإن خف فأنا لئيم)^(١).

(١) المصدر السابق ص ٢٦٥ - ٢٧٠

هذه الأقوال التي نقلها الامام الغزالي ألقت الضوء على كثير من جوانب الذاتية المتضخمة، وكانت أحيانا تصف العلاج -ولذلك طالت هذه الفقرة بعض الشئ - ومن هنا تتضح صورة الذاتية المتضخمة عند الإمام الغزالي، وهو بحق من القلائل الذين تنبهوا إلى اعتلال النفس البشرية بأمراض تخرجها عن طبيعتها، وتباعد بينها وبين فطرتها.

حقيقة الذاتية المتضخمة عند الغزالي:

يقول: (اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر مرحب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به. وبه ينفصل الكبر عن العجب - لان العجب لا يستدعي غير المعجب، يا بت لم يخلق الانسان الا وحده، تصور أن يكون معجبا ولا يتشور ان يكون متكبرا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره اعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لورأى نفسه احقر لم يتكبر، ولورأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغى أن يرى بنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره. فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لأن هذه الرؤية تنفى الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفع فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح ويكون الى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك. فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر،.. فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز فالكلمة عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى ايضا عزة وتعظيما.. ثم هذه العزة تقتضى أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات

ويسمى ذلك تكبرا، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره، حقر من دونه وازدراه واقصاه عن نفسه وأبعدها، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته. ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه أن اشدت كبره، فإنه كان أشد من ذلك استنكف عن إستخدامه ولم يجعله اهلا للقيام بين يديه، ولا بخدمة عتبه، فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وان حاج او ناظرانف أن يرد عليه، وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف في النصح، وان رد عليه شيئا من قوله غضب، وان علم لم يرفق بتبتمعلميه واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة وكأنه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والمعادن والعلماء فضلت عن عوام الخلق وكيف لا اعظم آفته وقد قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرو من كبر" وانما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين اخلاق المؤمنين كلها، وتلك الاخلاق وهى أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الابواب كلها لان من فيه كبر لا يقدر على أن يجب للمؤمنين ما يجب لنفسه وفيه شئ من العز ولا يقدر على التواضع وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد، وفيه العز ولا يقدر على كظم العيظ، وفيه العز، ولا ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا معنى للتطويل: فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزة، وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه

أقسام المتكبر عليه:

الاول: التكبر على الله تعالى:

وذلك هو افخس انواع الكبر ولا مثارله الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقا تل رب السماء ومثل فرعون وغيره

الثاني: التكبر على الرسل

:ويأتى من تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة بصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع من المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد الحق والتواضع الرسل

الثالث: التكبر على العباد

:: وذلك بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم. والدعوه الى الترفع عليهم فيزد ربهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا القسم وان كان دون الأول والثاني فهو عظيم من وجهين أ - عن الكبر والعز والعظمة والغلاء لا يليق الا بالملك القادر. ب - أنه يدعوا الى مخالفة الله تعالى في أوامره وان المتكبر واذا سمع الحق من غيره استنكف عن قبوله وتشكر لجحده^(١).

أسباب التكبر

يرى الإمام الغزالي أن اسباب الاكبر تنحصر فيما يلي:

اسباب دينية: وهي العلم والعمل

واسباب دنيوية: وهي النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار

العلم: وعن العلم يقول: وما تسرع الكبر الى العلماء.. فلا يلبث العالم أن يعزز بعزة العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره الى الهائم.. ويرجع ذلك إلى سببين

الاول: أن يكون اشتغاله بما يمسى علما وليس علما حقيقيا، وانما العلم الحقيقي ما يعرف به الانسان ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله تعالى ظ. وهذا يورث الخشية والتواضع..

(١) المصدر السابق ص ٢٧: ٢٨٣ نقل بتصرف واطافة

فأنا ما ورا ذلك من علوم كالتطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل
الخصومات وطرح المجاملات، فإذا تجرد الانسان لهاوجتى امتلاً منها امتلاً كبرت ونفاقا
وهذه بأن تسمى صناعات اولى من أن تسمى علوما

الثانى: أن يخوض العبد فى العلم وهو خبيث الدخيلة، ردى النفس، سئ الاخلاص
فإذا خاض فى العلم.. صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره

ولم يظهر فى الخير أثره.. كالغيث يتنزل من السماء حلوا صافيا، فتشربخ، الاشجار
بعروقها فتحوله على قدر طعة منها فيزداد المرمرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم بحفظه
الرجال فيتحول على قدر همهم واهوائهم فيزيد المتكبر كبرا والتواضع تواضعا فما اعز على
بسيط الارض عالما يستحق أن يقال له عالم ولا يحركه عز العلم وخيلاؤه. فان وجد ذلك
فهو صديق زمانه. وهميات: فأنا يسمح اخر الزمان يمثلهم وكما يغرى العلم تغرى العبادة
ايضا وتظهر على سلوك العائد اعراض منها: الترفع فى المجالس، التقدم على الاقران، اظهار
الإنكار على من يقصر فى حقه يصعرخه للناس، يعبس وجهه، ويقطب جبينه - كأنه متنزة
عن الناس او غضبان عليهم. ولا يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجهة حتى تقطب ولا فى
الوجه حتى يعبس، ولا فى الخد حتى يصعر، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ، ولا فى الذيل حتى يضم.
انما الزرع فى القلوب. كما قال رسول الله ﷺ " التقوى ها هنا " (١) وأشار إلى الصدر

الاسباب الدنيوية:

التكبر بالحسب والنسب:

فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان ارفع منه عملا
وعلما.. وذلك عرق دفين فى النفس لا ينفك عنه نسيب، واه كان صالحا وعاقلا، إلا أنه قد

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة..

لا يترشح منه ذلك (يظهر منه) عند اعتدال الاحوال، فان غلبه غضب أطفأ نور بصيرته وظهر منه ذلك.

التفاخر بالجمال:

وذلك اكثر ما يجرى بين النساء، ويدعو الى التنقص والغبية وذكر عيوب الناس.

الكبر بالمال:

وذلك يجرى بين الملوك في خزائهم والتجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لبسهم، وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير.

التكبر بالقوة وشدة البطش: ويكون التكبر على أهل الضعف.

التكبر بالاجماع والأنصار: ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة ويعتبر كمالا.. أمكن أن يتكبر به.

وبعد حديث الإمام الغزالي عن اسباب التكبر (اى تضخم الذات الإنسانية) يعود فيحدثنا اسباب التكبر الداخلية فيقول: اعلم ان الكبر خلق باطنى واما ما يظهر من الخلق والافعال فهو ثمرة ونتيجة وينبغى أن تسمى تكبرا ويبقى اسم الكبر للمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالتكبر، واما الكل. الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب فى المتكبر وهو: العجب. وسبب فى المتكبر عليه وهو: الحقد والحسد. وسبب يتعلق بغيرهما وهو: الرياء^(١).

ويعقب الإمام الغزالي على هذا الفصل الجيد عن الذاتية المتضخمة بفصل آخر عن الغرور إلا أنه يشتمل على عناصر التكبر ولذلك اكتفينا بما سبق إلا اننا ننصح بمراجعة هذين الفصلين لمن أراد أن يعد دراسة أخرى فى هذا المجال.

(١) المرجع السابق ص ١٦٦ وما بعدها. نقل يتصرف.

الخاتمة

بعد أن استعرضنا ماجاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة عن الذاتية المتضخمة والمرور على رأى الإمام الغزالي في تضخم الذات ظهرت عدة نتائج من خلال البحث تتلخص فيما يلي:

١ - أن تضخم الذات من الأمراض النفسية التي يصعب علاجها لأن هذا التضخم يتفاعل مع وجود الإنسان نفسه في الحياة ورغبته الجامحة في الخلود

٢ - أن تضخم الذات من الأمور التي تضر بعقيدة الإنسان وتوجهاته في الحياة وتخلط عليه الأمور، وتوقظ في نفسه الغرور، وتجعله عنصر مزدوج التفاعل، فصاحب لذات المتضخمة إيجابى في تكثيف الأحداث في الدائرة التي يعيش فيها، سلبى في خلافته في الأرض وفي عطائه للحياة

٣ - أن تضخم الذات من الأمور التي لا تكتشف مبكرا لأنها تتفاعل داخل الشخص المصاب بهذا المرض، في منطقة اللاشعور، وتكثف الكبت والحزن والحرمان، والفشل وتمزجها وتفجرها أفعالا إيجابية عكسية لهذا الشعور المكثف في اللاشعور، وهذا المرض النفسى يشبه إلى حد كبير مرض السرطان العضوى فهو يتكون في داخل الجسم من تفاعل المواد السامة والضارة ولا يعلن عن نفسه إلا عندما يستحيل العلاج، وهكذا تتكون وتتبلور الذاتية المتضخمة في منطقة مظلمة في اللاشعور ثم تخرج مرة واحدة سلوكا عمليا يرتكز على قناعة نفسية ومزاج غريب.

٤- أن أصحاب الذات المتضخمة لا يمتنطق بحياته، ولكنه يستنطقها لصالحه وينطقها بما يريد، وكما تتنوع صور الععى فى العيون، يصاب صاحب الذات المتضخمة بأنواع من الععى العقلى والفكرى وكل ععى يمنع العقل من أداء وظائفه الحيوية والفكرية.

٥

تتركز صعوبة علاج مريض الذاتية المتضخمة فى عدم استجابته لحالة الاستبصار التى تعتبر الأساس الأول فى علاج الأمراض النفسية بصفة عامة علاجا نهائيا وناجحا، وعلى سبيل المثال:

فالذى تتضخم ذاته من مرتكز العلم - أى يدعى أنه علام، فى حالة علاجه يتحتم على المعالج النفسى الوصول إلى أن يبصر ذاته ويعلم أن علمه بجانب علوم الآخرين لا يساوى شيئا، وبجانب العلم الحقيقى للأشياء لا يعد علما، وعندما يصل إلى هذه الحالة مع المعالج يبدأ من أول طريق العلاج، ولكن هميات هميات أن يعترف صاحب الذاتية المتضخمة بأنه يجهل شيئا فى الحياة، ويستحيل هذا أن يعترف صاحب الذاتية المتضخمة بأنه يجهل شيئا فى الحياة، ويستحيل هذا الاعتراف، ويستحيل معه العلاج، لأن اعتراف صاحب الذات المتضخمة بأى نوع من الضعف ينسف ذاته ويدمرها ولا يعالجها لأنها قامت أساسا على الخيال، وعندما تحاول فصلها عن هلاميتها تميتهما لأنها مثل النبات الذى يفصل من جذوره وتبعد عنه أسباب الحياة، ومع هذا يبقى الأمل فى أن يقوم المعالج الخبير فى فصل الذات عن جذوره وتبعد عنه أسباب الحياة، ومع هذا يبقى الأمل فى أن يقوم المعالج الخبير فى فصل الذات عن جذورها على فترات طويلة ويقطع جذرا أو يستبدله بجذر آخر حتى يصل فى النهاية إلى وضع جذور تعويضية تمد الذات بمقومات الحياة النفسية الطبيعية الصحيحة. إلا أن هذا الإحلال للمقومات النفسية فى داخل الذات المتضخمة ليس سهلا، بل تتضاءل أمامه كل أنواع استبدال الأجهزة العضوية التى

تشكل مجموع أجهزة الجسد الإنسانى، فمشكلة العلاج تكمن فى الاستبصار، والاستبصار يعاكس الذاتية المتضخمة فى أساس بنيانها النفس وسر وجودها فى الحياة.

٦ - وعند الإمام الغزالى تعود أسباب تضخم الذات إلى كثرة المال، وقوة الجسد، والتفوق فى العلوم المختلفة، ولعل هذه الأسباب كانت مناسبة لتضخم الذات فى زمانه إلا تفاعل أن تفاعل الأحداث وتراكمها وسرعة حدوثها فى الحياة، وبعد الناس من حياة الدعة والسكينة، والانتقال من الحياة الشعرية التى يمزج فيها الإنسان بين خيال وخيال، إلى الحياة الواقعية، التى فيها الإنسان بين دافع مُعاش، وواقع لا يستطيع تفسيره.

كل هذا أدى إلى إستحداث أسباب كثيرة لتضخم الذات:

أ - التعويض: فالإنسان الذى يعيش ظروفًا قاسية فى طفولته ولا يجد سبيلًا لفهم ما يحدث له يشعر بالقهر والدونية ويترسب هذا الشعور فى اللاشعور ويكمن فترة طويلة حتى يكبر هذا الإنسان ويتبوأ مركزًا فى الحياة ويمنحه هذا المركز فرصة للسيطرة على الآخرين، هنا فقط تتحرك نيران الماضى الكامنة فى اللاشعور وتضرم وتتصاعد أفعالًا وسلوكيات يصعب تفسيرها أو فهمها إذا ما عرضناه على منهاج السواء النفسى للإنسان.

ب - وتتعدد ظروف الحياة ويكثر عدد اليتامى الذين توفى عنهم أبائهم بسبب الحروب والأحداث، أو بطريقة طبيعية، ولكن المجتمع لم يعد لديه الوقت والرغبة فى تعويض هؤلاء بالحب والحنان بسبب ضعف الإيمان من جهة، وتزاحم الأحداث من جهة أخرى، هؤلاء اليتامى الذين حرموا من الحنان فى طفولتهم سيصبح بعضهم فى المستقبل مصدرًا للذاتية المتضخمة ويكون منهم العالم المتكبر، والحاكم المتجبر، والداعية الذى يدعو لنفسه وهو يظن أنه يدعو إلى دين الله سبحانه وتعالى. والمزارع الذى ينشغل بذاته عن زراعته وقضية وطنه الكبرى وكذا الصانع الذى تشغله ذاته عن أهداف أمته العظمية.

والفرق بين الذاتية المتضخمة والذاتية السوية، أن الأولى تتلاشى الأمة بأهدافها فى داخلها، والثانية تذوب فى أمتها وفى أهدافها. فالإنسان الطبيعى يعمل لخير أمته من غير

أن يضع ذاته عنوانا لهذا الخير. والإنسان المريض صاحب الذاتية المتضخمة، يتخيل أن الأمة ما خلقت إلا لخدمته هو وأن يكون سيذا مطاعا عليهما

ج - وتتضخم أيضا ذات بعض المصابين بالعاهات وليس ذلك - كما يتبادر إلى الذهن - بسبب العاهة ولكنه بسبب تجاهل المجتمع لأمال وأحلام صاحب العاهة، ولذلك عندما يجد صاحب العاهة فرصة لإثبات ذاته يثبتها متضخمة من البداية.

د - ويدخل الفقر الذي يعانیه الإنسان في طفولته وكذا الحرمان كسب من أسباب تضخم الذات عند بعض الناس حين تتغير ظروفهم المادية ويصبحون من الأغنياء وأقول عند بعض الناس، لأن أصحاب النفوس السوية حين يفتح الله تعالى لهم أبواب المال يتجهون إلى حمد الله تعالى على عطائه، بالقول والعمل فسيحمدون الله تعالى ذكرا، ويخرجون حق الفقراء من أموالهم شكرا وهؤلاء يتلاشى شعورهم الكامن بالدونية لأنهم بحمد الله تعالى وضعوا أساسا لبنیان ذواتهم على مرتکز الفطرة وفي ضوء الشريعة التي تحدد أهداف الإنسان في الحياة، وتبشرهم بسعادته في الآخرة.

هـ - ويأتى أتضاع الأسرة ودنو مستواها عاملا من عوامل تضخم الذات عند بعض الأفراد حين يكبرون ويصبح لهم المال والجاه في الحياة

الذاتية المتضخمة والدعوة:

تفيد دراسة الذاتية المتضخمة ميدان الدعوة الإسلامية في كثير من الأمور منها ما يلي:

١ - فهم النصوص النفسية فهما عميقا يشارك في علاج الأمراض الاجتماعية والنفسية وهي في مرحلة التكوين قبل أن تصبح مراضا.

ويتحتم على الدعاة الوقوف طويلا أما اهتمام القرآن الكريم بالمستضعفين من بني الإنسان فبالنسبة لليتيم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا اللَّيْتِمُ فَلَا نَقْهَرُ﴾ (سورة الضحى: ٩).

فاليتم يحتاج إلى طعام وشراب وكساء، لكن الله هنا يأمرنا برعاية الجانب النفسى عند اليتيم فبأمرنا ألا نكون سببا فى قهره، وليس هذا تصدقا من الناس على اليتيم، بل هو حماية لمستقبلهم ومستقبل أبنائهم حين يشتد عود اليتيم وتقوى ساعده ويستطيع أن ينكل بالمجتمع الذى يرحم طفولته ونفسيته.

ويجعل القرآن الكريم (دع اليتيم) سببا من أسباب التكذيب بالدين فيقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ (سورة الماعون ١، ٢) فى هذه الآية التكذيب بالدين لا يأتى بسبب حرمان اليتيم من المال كما فى سورة النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٠). فأية النساء تهتم بالمال، وآية الماعون تهتم بالجانب النفسى لأن القرآن الكريم يعالج مشكلات الإنسان بصورة شاملة.

وبالنسبة لأصحاب العاهات:

يرفع القرآن الكريم الحرج عنهم، فيقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ (سورة النور ٦١). لأن حرج أصحاب العاهات يسبب إهمالا ما نفسية خطيرة تؤثر على مستقبلهم النفسى

هكذا اهتمت الدعوة الإسلامية منذ البداية بهذه الجوانب التى أهملناها الآن بسبب الخلافات المذهبية والعنتريات الفردية التى تشبه إلى حد بعيد تضخم الذات وفهم النصوص بهذه الطريقة يبرز إنسانية الإسلام، وشموله للحياة

٢ - الاهتمام بالأبحاث النفسية فى الدراسات الدعوية لأن النفس البشرية وهديتها هما أمل الداعية وهدفه ومجال عمله.

٣ - إهتمام الدعلة بالمؤسسات الاجتماعية التى تخفف من آلام الناس مثل الجمعيات الخيرية الدينية التى تقوم على الشعور الدينى والإنسانى، وهذا يجعل الدعية

ينتقل من الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية المفيدة التي تخفف آلام الناس وتمسح عنهم الحزن وتضئ حياتهم، وهذه دعوة رسول الله ﷺ إمام الدعاة وسيد الهداة. إن الدعوة اللفظية التي تعتمد على الأحاديث الموضوعية والقصص الخرافية أماتت في أمتنا العزيمة وجلبت لها الهزيمة، وأقامت ساترا من الضباب بين الأمة ومستقبلها الكبير.

أ.د / محمد محمد أبو زيد